رابعة ثالث

صور شخصية

رواية

على الشوباشى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مدونة ابو عبدو

رابعة ثالث

صور شخصية

على الشوباشى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الصورة

دخلت حجرة مكتبى ذات يوم كعادتى، فإذا بى أصاب بإحباط شديد. لم يكن قد حدث أى تغيير فى الغرفة أو فى نظامها، فمنذ فترة طويلة، يعرف كل من فى المنزل أن حجرة مكتبى مقدسة، وأن الفوضى الشديدة التى تتميز بها هى «فوضى منظمة». فأنا أعرف طريق كل ورقة ومكان كل كتاب وسط هذه الأكوام المتناثرة كيفما اتفق، فى أماكن لم تخصص لها فى معظم الأحيان.. أو على الأقل هذا هو ما كنت أقوله لزوجتى... فالحقيقة هى أننى كثيرا ما بحثت عن ورقة أريدها بصفة عاجلة فلا أجدها فى المكان الذى كنت واثقا أننى وضعتها فيه، أو عن كتاب أريد أن أقرأه أو أرجع إلى شىء فيه، فلا أعثر له على أثر... ولكننى بشر، وذاكرة البشر ليست منزهة.. أظن أنه لا خلاف على ذلك!.. على أية حال، كنت قد نجحت فى إقناع زوجتى بذلك، أو إدّعت هى الاقتناع، فحرصت على

ألا تدع أحدا من الأولاد يدخل الحجرة، كما أعطت تعليمات مشددة إلى المرأة التى تنظف المنزل بألا تنقل ورقة واحدة أو كتابا واحداً من المكان الذى يوجد فيه، والاكتفاء بإزالة الأتربة. أما إذا اضطرت لرفع كتاب أو أوراق من مكانها فعليها أن تعيدها إلى نفس المكان بالضبط.

لم يكن قد حدث إذن تغيير فى نظام الغرفة (أو عدم نظامها إذا أردت الدقة)، على الأقل فى الظاهر. فأنا أعترف أنه حتى لو كانت بعض الأوراق أو الكتب قد نقلت من مكانها، بل واختفت تماما لما كان فى إمكانى أن ألاحظ ذلك.

ومع هذا، نظرت للحجرة وأصابنى الإحباط، وقلت لنفسى: «كيف يمكن أن تعمل فى مثل هذه الفوضى؟! هل من المعقول أن يوحى مثل هذا المنظر بشىء ذى قيمة؟». والغريب أننى أكتب فى هذه الحجرة وهى على حالتها هذه منذ سنوات ولم يخطر لى مثل هذا الخاطر. ربما كنت يومها فى حالة نفسية غير طبيعية. ربما حدث لى شىء ضايقنى، فانعكس ضيقى على الحجرة. لا أذكر بالضبط سبب ذلك التغيير الداخلى الذى انتابنى، لكن الذى أذكره هو أننى قررت أن أرتب حجرة مكتبى.

ولو حاولت أن أحكى هنا كيف كنت أقوم فى ذلك اليوم بفرز الأوراق والكتب التى كانت على المكتب أو المصفوفة فى أرفف المكتبة، أو تلك التى كانت فوق الكراسى، بل وعلى الأرض، وكيف كنت أضع لها ترتيبا سرعان ما يضطرب، وكمية الأتربة التى كانت راقدة وسط هذه الأكوام المكدسة، ورائحتها النفاذة التى ملأت خياشيمى ويدى، لطال الحديث وأبعدنا عن بيت القصيد..

وبيت القصيد هو صورة وجدتها أثناء عملية «تنظيم» حجرة مكتبى فى مكان لا أذكره الآن. كانت صورة مدرسية أخذت أدقق النظر فيها إلى أن استطعت أن أتذكر أنها صورة لفصل رابعة ثالث بمدرسة المنيرة الثانوية التى حصلت منها فى العام التالى على الثانوية العامة، التى كانت تسمى وقتها شهادة التوجيهية. وقد التقطت هذه الصورة، إذا لم تخنى الذاكرة، فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٩.

الناظر والمدرسون يجلسون على كراسى فى الصف الأول، وخلفهم يقف التلاميذ فى ثلاثة صفوف.. التلاميذ القصار فى الصف الثانى، والأطول منهم فى الصف الثالث، ثم أطول القامات، وأنا منهم، فى الصف الرابع.

نظرت إلى الصورة بدهشة، فلم أكن أذكر عنها أو عن كيفية وصولها إلى هذا المكان شيئا، ثم ابتسمت. فقد أثارت تداعيات كثيرة، وجعلت الماضى البعيد حاضرا فى لحظة واحدة. وبدأت أدقق النظر لأعرف هل سأذكر أسماء زملائى القدامى أم لا. تذكرت بعضهم، لكن معرفة البعض الآخر كانت تحتاج إلى إعمال الذاكرة. وترددت قليلا، وبمجهود نفسىٍّ كبير وضعت الصورة جانبا لأننى أدركت أن الفرق فى محاولة تذكر كل من فيها سيستغرق وقتا قد يطول بحيث لا أكمل تنظيم حجرتى.

واليوم، وبعد أن مضت عدة شهور على يوم اكتشافى للصورة، وبعد أن بدأت الفوضى تدب من جديد فى الحجرة التى استغرق ترتيبها بعناية شديدة يوما كاملا، رأيت الصورة أمامى.. والآن ليس لدى شيء مهم أقوم به، لذلك فإننى سأحاول أن أتفحص هذه الوجوه وأتذكر أصحابها، وأستعيد ما أعرفه عن مسار حياة بعضهم فيما بعد.

حضرة الناظر

كامل بك الحديدى، أو حضرة الناظر كما كان يطلق عليه رسميا، يتوسط الجالسين فى الصورة. ولم يكن وقتها يحمل رتبة البكوية، وإن حصل عليها فى العام التالى عندما أصبح ناظرا لمدرسة الخديوية. فقد كان نظار المدارس الكبرى وقتها يمنحون لقب بك رسميا، أى بمرسوم ملكى. لكنه لم يستمتع باللقب أكثر من عام واحد وبضعة شهور، فقد قامت الثورة بإلغاء الرتب والألقاب عام ١٩٥٢.

كان حضرة الناظر كما أذكره أنيقا جدا، ولكن بدون بهرجة، بمعنى أن أناقته كانت كلاسيكية. ربطة عنقه ذات ألوان تتناسب مع لون بدلته، وقميصه أبيض اللون مكويا كأحسن ما يكون. وكان دائما حليقا وكأنه ترك موس الحلاقة لتوه. وإذا اقتربت منه شممت رائحة خفيفة لماء كولونيا راق.

كان كامل بك متوسط القامة. ممتلئ الجسم فى غير مبالغة، لا يبتسم إلا نادرا وأذكر أننى رأيته يبتسم ابتسامات لا تكاد ترى، ثلاث أو أربع مرات خلال السنوات الأربع التى قضيتها فى المدرسة وهو ناظرها، وذلك عندما يهنئ أحد التلاميذ على نتائج ممتازة حصل عليها فى امتحان. وعلى الرغم من ذلك فإن ملامحه لم تكن عابسة. كانت قوة شخصيته تشع من عينيه ومن جسده كله، بدون أن يبدو أنه يفعل شيئا.

وأقول لكم الحق إننى لم أفكر وقتها، بل وحتى هذه اللحظة التى أنظر فيها للصورة، إن كامل بك كان تجسيدا حيا لما يجب أن يكون عليه «حضرة الناظر». فكثيرا، بل وكثيرا جدا ما يكون شخص ما مختلفا تمام الاختلاف عن الصورة التى يتخيلها الناس عمن يحتل منصبا مثل منصبه أو يقوم بعمل مثل عمله... ألم يحدث مثلا أن ذهب واحد منا لزيارة طبيب طبقت شهرته الآفاق، فوجد رجلا قصير القامة نحيلا عصبى المزاج، لو قابله فى الشارع لما تخيل للحظة واحدة أنه طبيب كبير؟ أما كامل بك الحديدى، فقد كان «الناظر المثالى». والأرجح أننى لم أفكر فى ذلك لسبب بسيط، وهو أننى وقتها كنت أتصور أن جميع نظار المدارس مثل كامل بك تماما.

وإذا كان أحد منا لم يره مبتسما، فإن أحدا كذلك لم يره منفعلا غاضبا. فقد كان عدم رضائه عن تصرف ما يتجسد فى نظرة من عينيه.. نظرة واحدة فقط، لكنها تقول كل شىء. هى نظرة هادئة صارمة، لا تعبر عن انفعال، وإنما عن اعتراض حازم. وكانت مثل هذه النظرة منه كفيلة بإرباك من توجه إليه، سواء أكان تلميذا أو مدرسا.

أذكر أيضا أنه لم يكن يظهر قط أيام الإضرابات فى المناسبات الوطنية. كان يلزم مكتبه لايبارحه ويغلق بابه بمجرد أن يشعر أن إضرابا عن الدراسة سيبدأ. وقد علمنا فيما بعد أنه كان يطلب من المدرسين أن يمنعوا تلاميذ السنتين الأولى والثانية من الخروج مع المتظاهرين إلى الشارع خوفا عليهم من التزاحم ومن المواجهة مع الشرطة. لكن «زعماء» المدرسة قرروا يوما أن يقوموا بإضراب لسبب واه لم يكن مناسبة وطنية جادة، وإنما لمجرد وقف الدراسة. يومها خرج من مكتبه بعد أن تجمعنا فى فناء المدرسة ونحن نردد هتافا وراء أحد «الزعماء»، وسار بهدوء وسط التلاميذ المتجمهرين حتى وصل إلى حيث كان قائد

المظاهرة، ثم رفع يديه، فسكت الجميع بعد تردد قصير. وانتظر هو لحظات بدت لنا دهرا، ومسح بنظرته الحازمة التى تعبر عن عدم الرضا جموع التلاميذ، ثم تحدث بصوت هادئ جدا قائلا إنه لا يتدخل عندما نتظاهر لأسباب وطنية أو سياسية، حتى فى الحالات التى لا يوافق فيها على موقفنا، لكنه لا يقبل مطلقا أن نختلق سببا واهيا لكى نضيع يوما من أيام الدراسة، لذلك فهو يأمرنا بالعودة إلى فصولنا فورا. وحدث وجوم وسط التلاميذ، لكن أحدا لم يتحرك من مكانه. فسارع بإمساك ذراع التلميذ الذى كان يقود المظاهرة وقال له «هيا». وشق طريقه وسط التلاميذ الواقفين فى ذهول ورهبة، إلى أن وصل إلى السلم الذى يؤدى إلى الفصول وبدأ يصعد. وبعد أربع أو خمس درجات، توقف والتفت قائلا «ماذا تنتظرون؟ هيا» ثم واصل صعوده، و«الزعيم» يسير إلى جواره صامتا لا يبدى أية مقاومة، حتى إذا ما وصل به أمام فصله، دفعه دفعة خفيفة إلى الداخل قائلا «تفضل!»... وانتظمت الدراسة فى ذلك اليوم.

وكان كامل بك يثير فضولنا بالطبع. فكنا نتساءل دائما «أين يقطن؟.. وهل هو متزوج وله أولاد مثل سائر البشر؟».. وعرفنا بعض هذه المعلومات مع مرور الوقت. كان يسكن فيلاً بالمعادى. وقد أبلغنا بذلك تلميذان كانا يقطنان فى هذه الضاحية. كما عرفنا منهما أن كامل بك له أربعة أبناء، ولدان وابنتان، وأن ابنتيه جميلتان جدا. وقيل لنا إن ابنه الأكبر طالب فى كلية الحقوق والثانى فى السنة الخامسة بمدرسة المعادى الثانوية. أما الابنتان فهما تلميذتان فى مدرسة فرنسية بالمعادى أيضا. وعن أسلوب حياته، عرفنا أن مسكنه تحيط به حديقة صغيرة، وأنه يهتم بها اهتماما كبيرا ويمضى الجانب الأكبر من أوقات فراغه فى رعاية الزهور والأشجار الغريبة التى يستورد بذورها من الخارج، ولا يسمح لأحد غيره بالعناية بها. ووصف لنا الزميلان حديقة كامل بك فقالا إن أشجارها كثيفة إلى حد أنها تشبه الغابة الاستوائية لتشابك أغصانها، ومع ذلك فإنها تنبت من ألوان الفاكهة ما لا مثيل له فى مصر.

وحتى بعد نقل كامل بك إلى مدرسة الخديوية، ظل الزميلان اللذان كانا يقطنان المعادى يحكيان لنا عن أحواله. لكن أخبار كامل بك انقطعت عنى بعد انتقالى إلى الجامعة، اللهم إلا خبر حصوله على رتبة «البكوية»، الذى لا أذكر بالضبط من أبلغنى به.

وبعد عامين من تخرجي، رأيته مرة يسير في أحد الطرق. لم يتغير على الإطلاق. اتجهت إليه، وصافحته مذكرا إياه بنفسي وأنا أشعر بسعادة حقيقية، فأكد لي أنه يذكرني جيدا، وإن كنت أشك في ذلك، وأخذ يسألني بهدوئه المعتاد عن أحوالي، وأعرب عن ارتياحه لما وصلت إليه، وتمنى لي التوفيق، ثم مضى إلى حال سبيله.

وكانت هذه هي آخر مرة رأيت فيها كامل بك. لكنني أذكر أنه بعد عدة سنوات قابلت مصادفة منير الوردانى، أحد الزميلين اللذين كانا يسكنان المعادى. كنت لا أعرف عنه شيئا منذ أن عين في وزارة الخارجية. وبعد التحيات وتبادل بعض الأخبار والذكريات، سألته إن كان قد تزوج ورزق بأطفال، فانفجر ضاحكا وقال: «ألا تدرى أنني تزوجت ابنة كامل بك الحديدى؟». وأجبته بالنفى وسألته عن أحوال ناظرنا القديم، فقال لي إنه لا يزال يعيش في منزله بالمعادى وأنه يواصل اهتمامه بحديقته وأشجارها وزهورها.

وبعد عدة سنوات أخرى، قرأت في صفحة الوفيات بالصحف نبأ وفاة كامل بك الحديدى. وذهبت إلى السرادق لتعزية منير الوردانى، لكنه لم يكن في السرادق، إذ كان وقتها سكرتيرا أول في سفارتنا في بيرو.

الأستاذ لويس حبيب

عن يمين حضرة الناظر يجلس الأستاذ لويس حبيب.

ولم يكن الأستاذ لويس حبيب مجرد مدرس أول اللغة الانجليزية فى المدرسة، وإنما كان أيضا الرجل الثانى بها. فلم يكن هناك وكيل بمدرسة المنيرة الثانوية مثل معظم المدارس الأخرى لسبب بسيط هو أن مدرستنا كانت حديثة، وكان عدد فصولها وقتها صغيرا.

وكان الأستاذ لويس قصير القامة بصورة ملحوظة، حتى أن معظم تلاميذ السنوات الثلاث الأخيرة كانوا أطول منه قامة، ممتلئ الجسم، مستدير الوجه. لكنه كان هو الآخر شديد الأناقة فى ملبسه. وكان على عكس كامل بك الحديدى، مبتسما دائما. لكن ابتسامته لم تكن دليلا على ضعف أو تساهل. كانت ابتسامة الواثق من سلطته ومن موقعه لدى التلاميذ. فقد كان كل تلاميذه يحبونه، ليس لأنه واسطتهم لدى حضرة الناظر كلما

احتاج الأمر لوساطة فقط، وإنما أيضا لتمكنه من اللغة الانجليزية، وأسلوبه الممتع فى شرح نصوص الروايات المقررة وفى تقريب قواعد اللغة إلى أفهامنا.

ولم يكن الأستاذ لويس ييأس من أى تلميذ بسهولة. فحتى أقل التلاميذ فهما كان صبورا معه، يحاول بأساليب مختلفة أن يشرح حتى يتأكد أن جميع التلاميذ قد فهموا. وأثناء قيامه بالشرح كان التلاميذ يصمتون ويستمعون إليه بشغف. أما المشاغبون فلم يكن أحدهم يجرؤ على مقاطعته أو مضايقته بأسئلة سخيفة كما كانوا يفعلون مع غيره، لا خوفا منه فقط، وإنما لعدم إثارة زملائهم عليهم. وعلى الرغم من ابتسامته الدائمة وصوته الذى لم أسمعه مرتفعا قط، كان التلاميذ يخشونه مع حبهم له. فقد كان يبدو قوى الشخصية إلى حد بعيد، على الرغم من أننى لا أذكر أن أحدا حاول استثارته ولو مرة واحدة طوال السنوات التى قضيتها بالمدرسة.

لكننى أذكر أن زميلنا «عهدى البيرقدار» شن مرة هجوما شديدا على الأسرة المالكة فى موضوع إنشاء كتبه له. وعندما قرأ الأستاذ لويس الموضوع، رفع رأسه عن كراسة عهدى ونظر نحوه بدهشة سائلا إياه لماذا فعل ذلك. وبهدوء شديد أجاب عهدى بأن هذا هو رأيه فى هذه الأسرة. ولأول مرة، بدا على الأستاذ لويس أنه مرتبك لا يدرى ماذا يفعل.لم يكن رأى عهدى غريبا أو شيئا استثنائيا. فصفحات الجرائد كانت مليئة أيامها بأنباء عن صفقة الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها عشرات الآلاف من شباب مصر أثناء الحرب العربية الإسرائيلية التى بدأت عام ١٩٤٨، تلك الحملة الصحفية التى بدأها إحسان عبد القدوس فى مجلة روز اليوسف. كما حفلت الصحف بأخبار عن التدخل السافر من جانب رجال السراى فى التحقيقات، ومحاولات النائب العام محمد عزمى باشا منع هذا التدخل بلا جدوى. كانت مصر كلها تغلى بالسخط على الملك وحاشيته. وتخلى الناس عن خوفهم من القلم السياسى لوزارة الداخلية، وأخذوا يهاجمون الفساد فى كل مكان. لكن موقف الأستاذ لويس كان حرجا بلا شك. فلم ينطق عهدى بكلام يمكن له أن يقول إن سئل عنه أنه لم يسمعه، وإنما كتبه فى كراسته، والأرجح أنه حكى لزملائه عما كتبه.

واصطبغ وجه الأستاذ لويس بالحمرة، ثم رفع رأسه وقال لعهدى بهدوء:

ـ ألا تدرى أن ما كتبته خطير ويمكن أن يجلب لك المتاعب؟

وكان عهدى واقفا بالطبع، ورد فى شبه تحدٍ:

ـ نعم. أعلم ذلك.

ولزم الأستاذ لويس الصمت ثوان بدت لنا وكأنها ساعات، لكنه لم يفقد هدوءه وقال:

ـ إذن لماذا كتبت ذلك؟

وفوجئ الجميع برد عهدى وبلهجة التحدى التى يصر عليها على الرغم من هدوء الأستاذ لويس:

ـ إن قول الحقيقة ليس جريمة، ثم إننى أتحدث عن أسرة أعرفها أكثر من أى شخص آخر، فهى أسرتى..

وبدت الدهشة على وجه الأستاذ لويس، بينما ضحك بعض التلاميذ، فأشار لهم بيده أن يلزموا الصمت وسأل:

ـ ماذا تقصد؟

كنت أنا أعرف ما الذى يقصده عهدى، لكننى كنت قد أقسمت له ألا أبوح بسره لأحد. وقال عهدى:

ـ والدتى حفيدة محمد على باشا، وأنا أعرف هذه الأسرة حق المعرفة.

وظهر الارتياح جليا على ملامح الأستاذ لويس، فقد أدرك أنه مهما فعل، فلن يصيب عهدى أى أذى جدى، فتنهد قائلا:

ـ أنا مضطر أن أعرض الأمر على حضرة الناظر.

وقد حدث أكثر من مرة أن حدثنا الأستاذ لويس بفخر عن ابنه أحمس فى مجال تشجيعنا على المذاكرة. أذكر مثلا أن تلميذا قال له فى أول العام الدراسى إنه يريد أن يدخل كلية الفنون الجميلة ولا يرى مبررا لبذل جهد كبير فى مذاكرة اللغة الانجليزية. فأخذ

الأستاذ لويس يقنعه بأن تعلُّم أى شىء مفيد لأى تخصص، وقال له إنه إذا أصبح رساما أو نحاتا مشهورا، وأقام معرضا فى الخارج، أفلا يكون من المفيد أن يجيد لغة أجنبية على الأقل حتى يخاطب النقاد وزوار معارضه الأجانب، ثم أضاف:

ـ سأضرب لكم مثلا بابنى أحمس، الذى دخل كلية الشرطة. كان ممتازا فى اللغات وهو تلميذ فى الثانوى. وبعد تخرجه من كلية الشرطة، عرف أن هناك مسابقة للفوز ببعثة لأمريكا، فدخلها، وكان ترتيبه الأول على المتسابقين لتفوقه فى اللغة الانجليزية، وهو الآن يستعد للسفر إلى واشنطن من كان يتصور أن اللغات الأجنبية ستفيد رجل شرطة؟

وأدركنا من حماسته فى الحديث ومن البريق الذى رأيناه فى عينيه كم يشعر بالفخر بابنه أحمس.

وقد فقدت كل أثر للأستاذ لويس بعد دخولى الجامعة ولم أعرف عنه شيئا، لكننى ذهبت لأمر ما منذ سنوات إلى مصلحة الجوازات والجنسية، وشاء الحظ أن أدخل مكتب اللواء وكيل المصلحة، وإذا بى أرى اسمه مكتوبا على لوحة أمامه «لواء أحمس لويس حبيب». وابتسمت وسألته عن والده بعد أن أخبرته أنه كان أستاذى فى مدرسة المنيرة، وعرفت أنه قد توفى منذ سنوات طويلة، بعد أن خرج على المعاش ناظرا لإحدى المدارس الثانوية الكبرى.

الأستاذ إبراهيم خليل إبراهيم

أستاذ اللغة العربية، ابراهيم خليل ابراهيم يجلس عن يسار حضرة الناظر. كان مكتنزا متوسط القامة، بشرته بيضاء بصورة تلفت النظر. وكان يتصبب عرقا معظم الوقت، حتى فى الشتاء عندما يبذل مجهودا، ويجفف عرقه بمنديل كبير الحجم وبعد أن يجفف عرقه، كان يضع هذا المنديل بعد أن يطويه بطريقة خاصة، بين رقبته وياقة قميصه إذا اشتد الحر، فيصبح شكله مثيرا للسخرية والرثاء فى آن واحد، خاصة وأنه، على عكس حضرة الناظر والأستاذ لويس، يرتدى ملابس غير معتنى بها، تبدو فضفاضة على جسمه على الرغم من بدانته.

كان نادرا جدا ما يبتسم، بل ويحاول كتم ابتسامته إذا ما استدعي شيء ضحكنا. وكان أول مايفعله عند دخوله الفصل هو أن يخلع طربوشه ويضعه مقلوبا بعناية فائقة على طرف

مكتبه. وإذا ما اضطر إلى مغادرة الفصل أثناء الحصة ولو لبضع دقائق، يضع طربوشه على رأسه، وكأنه لا يستطيع الخروج من الفصل بدون الطربوش.

وكنا في السنتين الأولى والثانية نخشاه لأنه كان يعاقب من يرتكب شيئا لا يرضي عنه بضربه على كف يده بسن المسطرة. وكان ذلك يؤلم ألما شديدا وخاصة في برد الشتاء. إلا أنه لم يكن يسرف في العقاب، بل نادرا مايلجأ إليه. لكنه توقف عن العقاب بتلك الطريقة منذ أصبحنا في السنة الثالثة.

وكنا نحب فيه إخلاصه في شرح الدروس. فكان، مثله مثل الأستاذ لويس حبيب، يحاول ألا يترك أحد التلاميذ غير فاهم للدرس الذى يشرحه. وكان يشجع التلميذ الذى لم يفهم على أن يطلب منه بصراحة أن يعيد الشرح. لكنه من جهة أخرى لم يكن يخفى شعوره تجاه كل منا. كنا نعرف جيدا من يحبه ابراهيم أفندى ومن لا يحبه. المشكلة الحقيقية هى أننا لم ننجح أبدا في معرفة المعيار الذى يفرق لديه بين المفضلين والمنبوذين. فقد كان بين الأولين تلاميذ متوسطون، وبين الآخرين تلاميذ متقدمون فى الدراسة. كذلك كان بين المرضى عنهم بعض المشاغبين، كان يتغاضى أحيانا عن تجاوزهم حدود الهدوء المطلوب في قاعة الدرس وكأنه لم يلحظ شيئا بينما كان بين المغضوب عليهم تلاميذ مهذبون هادئون.

ولعل أكثر ما كان يثير دهشتنا هو موقفه من ابنيه التوأمين خليل وهانى، اللذين كانا سويا معنا في السنتين الأولى والثانية. كان خليل نسخة مكررة من أبيه. سميناً جدا، أبيض البشرة، دائم العرق. وكان لا يغتسل كثيرا، لذلك كانت رائحته دائما نفاذة. وكان ترتيبه في جميع الاختبارات بين مجموعة الذيل. لكنه كان مثالا لطيبة القلب، يحاول أن يقدم خدماته لكل من يطلبها منه عن طيب خاطر. وعلى العكس منه كان هانى، نشيطا، يشع الذكاء من عينيه، متقدما جدا في الدراسة. وحتى من حيث الشكل كان نقيضا لأخيه. فقد كان نحيلا، أسمر البشرة، يهتم جدا بنظافته. ولم نكن نفهم كيف يعيش التوأمان في نفس المنزل.

كان خليل ضمن زمرة المفضلين على الرغم من كل عيوبه. وكان كلما فتح الله عليه بإجابة صحيحة على خلاف العادة، تهللت أسارير ابراهيم أفندى، ونرى في عينيه نظرة

مشرقة وحنونا، ونسمع منه كلمات تشجيع مبالغا فيها. أما عندما يتعثر خليل أو يجيب إجابة خاطئة، وهو ما كان يحدث فى معظم الأحيان، فكانت نظرة ابراهيم أفندى تملؤها خيبة الأمل والأسى، ويشير له بيده قائلا:

ـ اجلس، خيبك الله!.

أما هانى ـ الذى كان ابراهيم أفندى يصر على مناداته بالاسم العربى الصحيح «هانئ» ـ فكان واضحا أنه لا يحبه مثل شقيقه التوأم. وكان يعامله دائما بجفاء حتى عندما يبدى تفوقا، وكأنه لا يطيق ألا يشبهه ابنه، أو كأنه يحمله مسئولية تخلف شقيقه التوأم. لم يكن أحد منا يستطيع تفسير موقف ابراهيم أفندى من ابنيه.

وقد وقعت مأساة ابراهيم أفندى قبل التقاط هذه الصورة بعامين، أى عندما كنا فى السنة الثانية. فقد دخل هانى من باب المدرسة وحده ذات يوم. بينما جرت العادة على أن يأتى التوأمان سويا. وكان هانى ممتقع اللون، يرتجف جسمه كله، وأخبرنا أن شقيقه وقع تحت عجلات الترام. وتجمع التلاميذ حوله، فانفجر بالبكاء، وقال وسط نشيجه إنه لا يجرؤ على إبلاغ والده بهذا النبأ. وكان الأستاذ ابراهيم قد وصل قبل ابنيه لإعداد درس الحصة الأولى. وصعد مع هانى مدرس تصادف مروره فى هذه اللحظة، وعدد من التلاميذ. ولم أصعد معهم، ولا أدرى كيف تلقى ابراهيم أفندى النبأ، لكنه خرج من المدرسة بعد قليل وهو فى حالة من الذهول التام، ومعه المدرس الذى شارك فى إبلاغه بما حدث، وهانى يسير خلفهما.

وفى مساء نفس اليوم توجهت مع عدد من زملائى إلى منزل الأستاذ ابراهيم للتعزية. وكان حضرة الناظر وعدد كبير من المدرسين هناك. وقد حاول الأب أن يبدو متماسكا، لكن عينيه كانتا منتفختين ونظراته خابية.

وبعد ثلاثة أيام. عاد الأستاذ ابراهيم إلى المدرسة واستأنف عمله. لكن شيئا داخله كان قد تهشم. أصبحت نظراته زائغة وأصيب بفقدان الذاكرة، هو الذى كان لا ينسى أى شىء. وأصبح يقوم بعمله بصورة آلية وبلا حماسة.

ولم تتغير معاملته بالنسبة لهانى، بل ربما أصبح أكثر قسوة عليه.

وتوفى ابراهيم أفندى فى العام التالى لالتقاط الصورة.

الأستاذ رشدى طه

يجلس رشدى أفندى طه، مدرس الجغرافيا، عن يمين الأستاذ لويس حبيب فى الصورة. كنا نطلق عليه اسم «جريجورى بيك». ربما لم تكن ملامحه تشبه ملامح الممثل الأمريكى الشهير كثيرا، لكن مظهره العام وملابسه الأنيقة جدا وعنايته بتصفيف شعره، كانت تذكرنا بنجم أفلام هوليود، التى كنا ندمن مشاهدتها آنذاك.

وكان الأستاذ رشدى من المدرسين القلائل ـ بل ربما كان الوحيد ـ الذى لا يضع على رأسه طربوشا. ولم تكن أناقته وعدم ارتدائه الطربوش هما وحدهما ما يميزانه عن باقى المدرسين. فقد أدهشنا منذ أن كنا فى السنة الثالثة ـ وهى السنة التى نقل فيها إلى مدرستنا ـ عندما قال لنا فى إحدى حصصه الأولى، إن حفظنا لدروس الجغرافيا لا يكفى، وإنما يجب أن تكون لدينا حصيلة كبيرة من المعلومات العامة. وأخذ يشرح لنا كيف أن علم الجغرافيا ذاته أصبحت له فروع كثيرة مرتبطة بعلوم أخرى، مثل الجغرافيا البشرية، والجغرفيا

الاقتصادية والجغرافيا السياسية وغيرها، فما بالنا بباقى فروع المعرفة. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يحدثنا فيها أحد المدرسين عن أشياء لم تكن فى منهج الدراسة، ويحثنا على قراءة كل ما يقع تحت أيدينا، وخاصة الصحف اليومية. وعلى الرغم من أن قلة منا رأت أن فى برامج الدراسة ما يكفينا، فلا داعى لإرهاق عقولنا بمعلومات إضافية، إلا أن الغالبية العظمى من التلاميذ أعجبت بالأستاذ رشدى أيما إعجاب، وكانت تنصت لكل ما يقول باهتمام كبير. والحق أن حديثه كان جذابا ومنطقه كان سليما.

ومما أذكره أنه أخذ يحدثنا ذات يوم عن الخلاف بين ستالين وتيتو، الذى كان قد أصبح علنيا قبلها ببضعة أسابيع. لم يكن أحد منا تقريبا يعرف شيئا عن هذا الموضوع، باستثناء ثلاثة من زملائنا، كما تبين أثناء النقاش الذى أثاره حديث الأستاذ رشدى. وكانت نظريته هى أن هذا الخلاف مجرد خدعة اتفق عليها الرجلان لكى يستطيع تيتو أن يعرف أسرار السياسة الأمريكية ويحصل من الولايات المتحدة على السلاح الذى سيعطيه بعد ذلك للسوفييت لكى يعرفوا أسرار الأسلحة الأمريكية، كما سيحصل على المساعدات التى سيوزعها بعد ذلك على الدول الشيوعية كلها. وكان يؤكد أنه إذا ما نشبت حرب بين الاتحاد السوفيتى والغرب، سيعلن تيتو موقفه الحقيقى وينضم للشيوعيين. وهبّ زميلنا شكرى محمد حسنين للهجوم على نظرية رشدى أفندى وقال إن تيتو خائن للشيوعية وإنه باع نفسه للأمريكيين. أما زميلانا مدحت النخيلى وإدوار وجيه سعد، فقد اعترضا على وجهة نظر الأستاذ رشدى وقالا إنهما يعتقدان أن الخلاف بين الزعيمين حقيقى، وأن الإعلان عنه يعنى أنه وصل إلى درجة من الحدة يصعب بعدها الصلح بينهما. ولم يبد على الأستاذ رشدى أنه غضب من معارضة تلاميذه، بل أخذ يحاورهم بالحجة، مدافعا عن وجهة نظره. أما نحن فلم نشترك فى هذا الحوار، بل كنا نسمع ما يقال بشىء من الدهشة، إذ لم نكن قد سمعنا شيئا عن هذا الخلاف، أو ربما سمعنا بضع كلمات عنه فى غمرة أحداث كثيرة فلم نعره أى التفات. والأرجح أن الكثيرين منا لم يكونوا قد سمعوا أصلا عن اسمى تيتو وستالين. لكننا استنتجنا يومها أن زميلنا شكرى محمد حسنين شيوعى، وأن مدحت النخيلى وإدوار وجيه سعد يتمتعان بقدر كبير من المعلومات العامة، وأن رشدى أفندى ليس شيوعيا، بل مجرد مثقف متابع للأحداث، يفكر فيها ويحاول تحليلها. وأكد استنتاجنا هذا أنه أثار بعد ذلك موضوعات أخرى فى مجالات مختلفة

ليلفت نظرنا إلى أن الحياة ليست محصورة فى علوم الدراسة فقط، وأن الإنسان يجب ألا يأخذ دائما بظواهر الأمور، بل يجب عليه أن يعمل فكره فيها ويحاول أن يحللها ويستخلص النتائج من تحليلاته.

وعلى الرغم من حيوية حصص الأستاذ رشدى وتشويقها، وسعة صدره فى المناقشات التى كان يثيرها، ومعاملته المهذبة لنا، إلا أنه كان حريصا على إقامة مسافة بينه وبين أى منا، فلم يقم علاقة خاصة بأى تلميذ، وكأنه يريد أن ندرك أننا جميعا متساوون فى نظره، وأنه لا فضل للذكى على ذكائه ولا ذنب للغبى على قلة ذكائه.

وقد لاحظنا بعد فترة أن ومضات من الضوء تظهر وتختفى، تلاحق الأستاذ رشدى أثناء شرحه للدروس، وتوجه بصفة خاصة نحو وجهه. وظننا فى البداية أن الأمر مجرد مصادفة، ولكنه عندما تكرر وأثناء حصص الأستاذ رشدى بالذات، بدأنا نهتم بالبحث عن تفسير لذلك، إلى أن اكتشفنا أن فتاتين تطل نافذة منزلهما على فصلنا تستخدمان مرآة تعكسان بها أشعة الشمس على وجه الأستاذ رشدى لمعاكسته. لكنه ظل يتصرف وكأنه لا يلحظ ذلك، ويستمر فى إلقاء دروسه وكأن شيئا لم يكن. وعندما بدأت ضحكاتنا تتعالى كلما ظهرت ومضات الضوء، كان يقول بهدوئه المعتاد:

ـ أرجو إغلاق النافذة، إذ يبدو أن زجاج السيارات المارة يعكس الضوء على وجهى.

وفى أحد الأيام جاء زميلنا ابراهيم أبو بكر وهو يحمل مجلة أدبية بها مقال بتوقيع الأستاذ رشدى طه. وسألناه عنها فأجاب:

ـ نعم أنا أنشر بعض المقالات أحيانا. ومن منكم يريد مناقشتى فى أى منها فأنا على استعداد لذلك.

وبالفعل، أخذ بعضنا يتابع مقالات الأستاذ رشدى ويناقشه فيها. لكنه كان يرفض المناقشة أثناء الحصص، لذلك كثيرا ما كان يجلس مع من يريد الاشتراك فى المناقشة أثناء فترة الراحة التى تلى تناول وجبة الغداء، والتى كانت تستمر ساعة كاملة.

وأخذت أتابع مقالات الأستاذ رشدى فى مجلات أدبية مختلفة لفترة طويلة بعد تخرجى، لكنى لم أره قط. وبعد سنوات طويلة زادت على العشرين، اختفت هذه المقالات، ولم أعرف شيئا عن الأستاذ رشدى نفسه.

الأستاذ وصفى تادرس

يجلس الأستاذ وصفى تادرس، مدرس الطبيعة والكيمياء عن يسار ابراهيم أفندى خليل، بقامته المشدودة ونظارته القاتمة ووجهه العابس. لم يكن سن الأستاذ وصفى تادرس يزيد عن السادسة أو السابعة والعشرين، لكنه كان يبدو أكبر من ذلك كثيرا، وكأنه يحمل هموم الدنيا على كتفيه. ولست أدرى بالضبط من الذى قص علينا قصته. وهى تتلخص فى أنه كان الأول على دفعته فى شهادة التوجيهية، واختار أن يدخل كلية العلوم بدلا من الطب ـ كما يفعل عادة المتفوقون فى القسم العلمى للتوجيهية ـ لأنه كان يهوى الطبيعة، وأمله فى الحياة أن يتخصص فى الطبيعة النووية. فقد كان اسم الدكتور على باشا مشرفة، أستاذ الطبيعة بكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (التى أصبحت جامعة القاهرة فيما بعد) وأول من افتتح قسما للطبيعة النووية بالكلية، يثير أيامها خيال الكثير من الشباب فى مثل سنه. وكان

ترتيبه الأول طوال سنوات الدراسة فى كلية العلوم، وعين معيدا بعد تخرجه، ثم حصل على الماجستير فى الفيزياء ـ كما كان يصر على تسميتها ـ بعد ثلاث سنوات من تخرجه.

وكان من المقرر أن يسافر فى بعثة إلى انجلترا للحصول على الدكتوراه. لكن، لسوء حظه، كان ابن أحد الأساتذة فى الكلية مرشحا لنفس البعثة. وقرر مجلس الكلية اختيار ابن الأستاذ بحجة أنه، وإن كان ترتيبه الثانى، إلا أنه حصل على درجة أكبر فى المادة التى رصدت من أجلها البعثة. وعبثا حاول الأستاذ وصفى أن يجعل مجلس الكلية يعدل عن قراره. لذلك رفض أن يحضّر رسالة الدكتوراه فى الجامعة المصرية، كما عرضوا عليه وقتها، بل وطلب نقله إلى التعليم الثانوى.

كان الأستاذ وصفى يشعر بمرارة شديدة تنعكس على تصرفاته، لدرجة أننا كنا نؤكد أنه يرتدى نظارة قاتمة ليخفى نظرة خيبة الأمل التى كانت مرتسمة على وجهه بصفة دائمة.

وكان يجاهر بأنه رصد فى كل فصل تلميذين أو ثلاثة على الأكثر أذكياء، أما الباقى فأغبياء لا أمل فيهم. ومع ذلك كان يبذل مجهودا كبيرا فى شرح دروسه، ولكن ببطء وتؤدة. وكثيرا ما كان يدخل الفصل، فيفاجئنا بإجراء اختبار تحريرى. ولم يكن يغفر أى خطإٍ فى اللغة العربية، وينتقص درجات كثيرة على كل خطإٍ لغوى. وكان يقول تفسيرا لذلك إن العلم يستدعى أكبر قدر من الدقة، ووسيلة التعبير الدقيق هى اللغة. ومن يخطئ فى اللغة فإن تعبيره لا يمكن أن يكون دقيقا، وبذلك يفتقد الدقة التى يتطلبها العلم. لكن معظم التلاميذ كان لا يفهم هذا المنطق وينتقده.

ولم يكن الهدف من اختبارات الأستاذ وصفى معرفة من حفظ الدروس عن ظهر قلب، بل كانت تغلب على هذه الاختبارات الأسئلة غير المباشرة، التى تستدعى إعمال الذكاء. لذلك لم يكن أوائل الطبيعة والكيمياء هم أوائل الفصل التقليديين. وكان يقيم علاقات خاصة بمن يعدهم أذكياء، فكان يعيرهم الكتب من مكتبته الخاصة، أو يناقش معهم مشكلاتهم ويبدو كواحد منهم. فلم يكن فارق السن بينه وبيننا يزيد بحال عن عشر سنوات. أما الآخرون، فكان يتجاهلهم.

وفى العام التالى لتلك الصورة، رقى الأستاذ وصفى وأصبح مدرسا أول على الرغم من صغر سنه. لكن هذا كان طبيعيا، فربما كان المدرس الوحيد فى التعليم الثانوى كله الحاصل على الماجستير فى الفيزياء.

وظلت علاقتى بالأستاذ وصفى طيبة حتى بعد دخولى الجامعة وتخرجى وبعد انتقاله إلى مدارس أخرى. وكنا نلتقى من حين لآخر مع بعض تلاميذه القدامى، حتى بعد أن أصبح ناظرا وهو فى السادسة والثلاثين من عمره. وعرفنا منه أنه تزوج إحدى قريباته تعمل مدرسة للغة الانجليزية، وأنجب ثلاثة أولاد.

وفاجأنا الأستاذ وصفى بعد بضع سنوات بأن أخبرنا أنه قرر الهجرة إلى كندا. وكنا قد أصبحنا أقرب إلى الأصدقاء الحميمين، لذلك سمحنا لأنفسنا أن نسأله عن سر هذا القرار المفاجئ، فقال إن شقيقى زوجته هاجرا إلى هناك منذ بضع سنوات واستطاعا أن يشقا طريقيهما، وأنهما أقنعا شقيقتهما بأن المدرسين هناك يعيشون حياة الملوك، وأنهما يستطيعان هو وزوجته، إذا عملا سويا بالتدريس، أن يمتلكا منزلا كبيرا به حديقة وحمام سباحة بعد ثلاث أو أربع سنوات فقط. وأضاف أن زوجته تلح عليه إلحاحا شديدا لكى يهاجرا منذ أن سمعت ذلك، وتتحجج بمستقبل الأولاد، وأنه حاول أن يقنعها بلا جدوى أن الهجرة قد تصلح لشاب فى العشرينات من عمره، لكنها تصبح صعبة جدا لمن بلغ الأربعين لكنه فى النهاية رضخ لإلحاحها وقرر الهجرة، وإن لم يكن مقتنعا بذلك.

وبعد مرور نحو ستة شهور على رحيل الأستاذ وصفى وأسرته، إذا به يدخل مكتبى ذات يوم. ورحبت به بحرارة وسألته عما حدث، فقال آسفا إنه انفصل عن زوجته وتركها فى كندا وعاد وحيدا. وقد فوجئت بذلك، فقد كان الأستاذ وصفى دائما رب أسرة مثاليا، متعلقا بزوجته وأبنائه. لكنه أخبرنى أنه لم يحتمل الحياة فى كندا على الرغم من توفر كل وسائل الراحة المادية. فقد افتقد هناك عاداته وأصدقاءه ووضعه كناظر مدرسة محترم. صحيح أن المدرس فى كندا يحصل على مرتب كبير يوفر له سبل العيش المادى المريح، وأن كافة وسائل الحياة السهلة ميسرة هناك، إلا أنه لم يستطع التأقلم على نوع العلاقات بين الناس. فكل فرد يعيش هناك وكأنه فى جزيرة منعزلة. ووصف لى كيف يلتقى الناس

فيتحدثون فى السياسة أو عن آخر فيلم أو مسرحية رأوها، لكن أحدا منهم لا يفتح قلبه لصديق أبدا، أو يشكو له همومه، فهم يعدون ذلك ضعفا غير مقبول. كذلك قال لى إنه شعر أنه مجرد رقم. فالجميع يعاملونه بأدب، وإنما بدون أى حرارة. المهم أنه أصر على العودة إلى مصر، لكن زوجته رفضت ذلك تماما واتهمته بالأنانية، فقرر أن يعود وحده. وسألته بدهشة عن مصير أولاده، خاصة وأن الطلاق غير معترف به فى شرع الأقباط الأرثوذكس، فأجاب أنه يرجو أن يتأقلم أولاده على الحياة هناك، أما زوجته فهى حرة تفعل ما يحلو لها، وأن مشكلة الطلاق مشكلتها هى، فهو شخصيا لا ينوى الزواج مرة أخرى. ولكنه أضاف أن تسوية مثل هذه المسائل ممكن فى كندا.

ولم يكن معاش الأستاذ وصفى يكفى احتياجاته. لذلك سعى هو وأصدقاؤه ـ ومعظمهم من تلاميذه القدامى ـ إلى أن يعمل فى حقل الترجمة، حيث أثبت جدارته وهو يترجم حتى الآن للمجلات ولبعض المنظمات الدولية، بل وترجم أكثر من عشرة كتب لاقت رواجا. وهو يلتقى بأصدقائه باستمرار. ولم يتزوج الأستاذ وصفى مرة أخرى كما قال. ومن حين لآخر يتلقى خطابا من أحد أبنائه فى كندا يطمئن به على أحوال الأسرة.

الأستاذ حسن حسين عبد التواب

بذلت مجهودا كبيرا لكى أتذكر اسم الأستاذ حسن حسين عبد التواب، على الرغم من أننى عرفت شخصيته لأول وهلة. كان يجلس فى الصورة عن يمين الأستاذ رشدى طه. وكان مدرسا للتاريخ، لكنه فى ذات الوقت عين كامل بك الحديدى فى المدرسة، حتى أن التلاميذ عندما يتحدثون عنه كانوا يسمونه «جاسوس الناظر». وكان هو يعرف ذلك. لكنه لم يكن يغضب، بل على العكس، كان وكأنه يتعمد أن يعرف الجميع أنه ينقل كل كبيرة وصغيرة لحضرة الناظر حتى يخشوه.

كان حسن أفندى نحيلا، نشيط الحركة، لم أره جالسا قط، سواء فى الفصل أثناء إلقاء الدروس أو فى فناء المدرسة. وكان بسبب نشاطه دائم التنقل فى كافة أرجاء المدرسة، بحيث كان من الممكن أن يظهر فجأة فى أى مكان، فى الأوقات التى لم يكن فى إحدى

الحصص بالطبع. وهكذا نصب نفسه مشرفا عاما بدون أن يكلفه أحد رسميا بهذا العمل، ولكن كامل بك لم يكن يعترض على ذلك، لأنه كان يعرف عن طريقه كل ما يحدث فى المدرسة. وكان حسن أفندى يحمل دائما مؤشرا طويلا، مما يستخدمه بعض المدرسين لشرح شيء على الخرائط أو على السبورة عن بعد. وعلى الرغم من أنه لم يكن يستخدم هذا المؤشر، إلا أنه كان فخورا به وكأنه صولجانه.

ومع ذلك، لم يكن حسن أفندى يأخذ أية مبادرة أو يبدى أقل ملحوظة. كان يكتفى، إذا رأى مخالفة من أى نوع، بابتسامة لزجة، ويهز رأسه عدة مرات قبل أن ينصرف فى هدوء. وكان هذا معناه أن حضرة الناظر سيعرف بما حدث خلال بضع دقائق.

أما حصص حسن أفندى، فقد كانت فى كثير من الأحيان مجالا لمناقشات صاخبة، وخاصة فى السنة الرابعة التى التقطت خلالها الصورة. ذلك أن المقرر فى هذه السنة الدراسية كان تاريخ مصر الحديث، منذ الحملة الفرنسية حتى الملك فاروق الذى كان وقتها لايزال يحكم البلاد. وكان حسن أفندى يشرح الدروس كما وردت فى الكتاب المقرر بطريقة حرفية، بل وكثيرا ما كان يبالغ فى الحديث عن مآثر أسرة محمد على. لكن مصر فى ذلك العام كانت تغلى بالثورة على الملك فاروق وعلى تصرفاته الشخصية. لذلك كنا كثيرا ما نحتج على عبارات حسن أفندى التى تشيد بأسرة محمد على. وقد قال له عهدى البيرقدار يوما:

ـ نحن نعلم أنك موظف، وأنك مضطر لأن تقول ذلك.

ولم يبد حسن أفندى أى غضب، بل ابتسم ابتسامته اللزجة وقال بهدوء إن هذا غير صحيح، وإنه مقتنع تمام الاقتناع بكل كلمة ينطق بها، وأننا سوف ندرك بعد سنوات أن ما يقوله الآن صحيح.

وبعد أن تركت المدرسة، لم أعرف شيئا عن حسن حسين أفندى، إلى أن حكى لى بعد عامين فتحى بسطويسى، الذى كان زميلنا فى المدرسة وأصبح زميلى فى الكلية، أنه رآه فى هيئة التحرير ـ وهو التنظيم الذى أقامته الثورة فى أول عهدها ـ وأنه لا يكف عن الحركة

فى مقر ذلك التنظيم، وأنه نجح على مايبدو فى الوصول إلى أحد المسئولين عنه.. ثم أخبرنى فيما بعد أن حسن أفندى رقى إلى وظيفة مفتش تاريخ.

وظللت أعرف أخبار حسن أفندى عن طريق فتحى بسطويسى، فعلمت أنه يتردد كل مساء على هيئة التحرير ولا يغادر مقرها إلا مع آخر شخص يغادره. وأكد لى أنه يسب أسرة محمد على ويقول إنها سبب كل مشكلات مصر ومصائبها. وحاول فتحى مرة فيما بينهما، أن يذكره بما كان يقوله فى الفصل عن الأسرة المالكة، فأنكر ذلك كل الإنكار، وأخذ يتحدث عن مواقف وطنية له عندما كان طالبا بمدرسة المعلمين. وبعد هذه الواقعة، تدهورت علاقته بفتحى، بعد أن كان فى أول الأمر يعامله كصديق.

لكن حسن أفندى أخطأ الحساب أثناء أزمة مارس عام ١٩٥٤. فقد اعتقد أن رئيس الجمهورية محمد نجيب لابد سينتصر فى معركته مع جمال عبد الناصر. فكيف يمكن ـ بمنطقه ـ أن يخسر رئيس الجمهورية معركة مع أى شخص كان؟ لذلك، وقف إلى جانب مؤيدى محمد نجيب بحماسة لفتت إليه الأنظار، بل واشتبك بالأيدى مع أحد مؤيدى جمال عبد الناصر. وعندما شعر أن هيئة التحرير تقف ضد محمد نجيب، امتنع عن الذهاب إليها، وأخذ يحاول أن يبحث عن مؤيدى رئيس الجمهورية. وسمعنا أنه سار فى جميع المظاهرات التى خرجت لتأييد محمد نجيب، وأنه كان من زعماء هذه المظاهرات.

وعندما حسم الأمر لصالح عبد الناصر، علمنا أن حسن أفندى اعتقل. لكنه لم يبق فى المعتقل أكثر من ثلاثة أشهر. وعندما خرج من المعتقل، كف عن أى نشاط، واستمر فى عمله كمفتش للتاريخ، محاولا أن ينساه الجميع. وقد نجح فى ذلك بالفعل، فقد اختفت أخباره تماما ولم نعد نسمع عنه أى شىء.

فـؤاد أفنـدى

لم نعرف الاسم الكامل لفؤاد أفندى، الذى يجلس فى الصورة عن يسار الأستاذ وصفى تادرس، لسنوات طوال، وإنما كنا نكتفى بمناداته «فؤاد أفندى!». كان مدرس الألعاب الرياضية الوحيد فى المدرسة. والحق أنه لم يكن يرهق نفسه كثيرا فى العمل، بخلاف محاولة استرضاء حضرة الناظر والسير خلفه كلما خرج من مكتبه. لكن كامل بك كان لا يعيره أى التفات تقريبا، وحتى عندما كان فؤاد أفندى يوجه إليه الحديث، كان يستمع إليه بدون أن ينظر نحوه. أما حسن حسين أفندى، فكان يعامله باحتقار واضح. لكن فؤاد أفندى لم يكن يشعر بغضاضة من كل ذلك، بل كان يبالغ فى إظهار الولاء لحضرة الناظر كلما شعر بأنه يتجاهله تقريبا، ويحاول بلا جدوى، أن يتقرب من حسن حسين أفندى.

وكانت حصص فؤاد أفندى تبدأ دائما ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة لمدة لا تزيد بأى حال على عشر دقائق، يخرج بعدها الكرة ويتركها لنا لكى نقسم أنفسنا فرقا تتبارى

فى لعبة الكرة الطائرة. ولم يكن فناء المدرسة كبيرا، لذلك فلم يكن به ملاعب رياضية بخلاف ملعب الكرة الطائرة هذا، إذ لم يكن الأمر يستدعى أكثر من قائمين خشبيين مثبتين فى الأرض، تفصل بينهما مسافة تبلغ نحو ثلاثة أمتار، وتصل بين قمتيهما شبكة أقصى ارتفاع لها متران. وكان يتركنا ويمضى إلى غرفة صغيرة تحت السلم الذى يفضى إلى الأدوار العليا، ليست لها أية نوافذ، يضع فى ركن منها الأدوات الرياضية القليلة التى تسمح بها ميزانية الرياضة فى المدرسة، وفى الركن الأقرب إلى الباب مائدة صغيرة يستخدمها كمكتب، خلفها كرسى وأمامها كرسيان. وعادة ما يصحبه إلى هذه الحجرة تلميذان أو ثلاثة من أصدقائه الذين لا يهتمون بلعب الكرة الطائرة، يجلسون داخل الغرفة أو أمام بابها حسب حالة الطقس، ويقضون باقى الحصة فى الحديث وتدخين السجائر.

وكان فؤاد أفندى يوصى أحد التلاميذ بمراقبة مكتب حضرة الناظر، فإذا رآه يفتح ويخرج منه كامل بك ـ وهو ما لم يكن يحدث كثيرا ـ يسرع بإبلاغ فؤاد أفندى، الذى يجمع على عجل التلاميذ الذين لا يشاركون فى مباراة الكرة الطائرة الجارية، ويجعلهم يؤدون بعض التمرينات الرياضية إلى أن يعود كامل بك إلى مكتبه.

لكن شائعات كانت تتردد عن علاقة فؤاد أفندى الشاذة ببعض التلاميذ، الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة أو أربعة فى المدرسة كلها. وقد ساعد على انتشار هذه الشائعات أن فؤاد أفندى لم يكن متزوجا على الرغم من أنه تجاوز الأربعين من عمره. كذلك فإنه كان يرى أحيانا أثناء التمرينات الرياضية وهو يتحسس بطريقة غريبة سيقان بعض التلاميذ أو أفخاذهم، بحجة أنه يساعدهم على إتقان تأدية التمارين. وكانت الشائعات تؤكد أن هذا «الاختبار» هو الذى يتيح لفؤاد أفندى تصيُّد الذين كان لديهم استعداد لمثل هذه العلاقات.

وعلى الرغم من أن أحدا لم ير فؤاد أفندى فى وضع غير طبيعى مع أحد من هؤلاء، إلا أن حوائط دورات المياه وأبوابها كانت مليئة بعبارات كتبت عليها، تشير بالتلميح أحيانا، وبكلمات نابية صريحة أحيانا أخرى، إلى علاقة فؤاد أفندى ببعض التلاميذ الذين كانت هذه العبارات توضح أسماءهم صراحة.

وفي أوائل العام الذى التقطت فيه هذه الصورة، تحمس فؤاد أفندى فجأة لتكوين فريق للعقلة والمتوازيين. واستطاع إقناع كامل بك بطلب الجهازين اللازمين من مخازن «وزارة المعارف العمومية» (وهو الاسم الذى كان يطلق وقتها على وزارة التربية والتعليم). وبالفعل جاء الجهازان، وأخذ فؤاد أفندى يبذل جهودا كبيرة مع عدد من التلاميذ الذين تطوعوا للعمل معه لرغبتهم فى تعلم هذه الرياضة، لإعداد المكان الذى تقرر وضع الجهازين فيه، وحفر مكان أمام موضع المتوازيين لكى يملأ بالرمل حتى لا يصاب التلميذ الذى يسقط أثناء تأدية أحد التمارين بأذى. وأخيرا وصل الجهازان، وأقنع فؤاد أفندى حضرة الناظر بضرورة وجود مدرب يعمل بالقطعة، لأن ميزانية المدرسة لم يكن بها وظيفة مدرب يعمل بمرتب. وهكذا جاء محمد أفندى مخيمر.

كان محمد أفندى مخيمر شيخا تجاوز بالتأكيد الخامسة والستين، لكنه مع ذلك كان مدربا قديرا، بل وكان على الرغم من سنه، يقوم ببعض التمرينات بنفسه على المتوازيين. وقد أدهشتنا مقدرته، مما شجع عددا كبيرا من التلاميذ على الانضمام إلى فريق العقلة والمتوازيين بالمدرسة.

وقد عرفنا فيما بعد أن محمد أفندى مخيمر لم يكن إلا والد فؤاد أفندى، وأنه كان هو الآخر مدرسا للتربية البدنية فى المدارس، لكنه بعد أن بلغ سن المعاش، كان لايزال نشيطا وفى حاجة إلى دخل إضافى لأن معاشه لم يكن يكفيه. لذلك تحمس فؤاد أفندى لإدخال رياضة العقلة والمتوازيين إلى مدرستنا.

كما علمنا أن فؤاد أفندى ـ بخلاف أبيه ـ ليس لديه أى مؤهل لكى يصبح مدرسا للتربية البدنية، لكن والده استطاع أن يعينه فى وزارة المعارف بوساطة من أحد كبار رجال الدولة. لكنه ليس لديه أى أمل فى الترقى الوظيفى مثل أى مدرس آخر، بل وربما فى أن ينقل إلى مدرسة أخرى.

وبالفعل، ظللت أتتبع أخبار مدرسة المنيرة لعدة سنوات تلت دخولى الجامعة، وظل فؤاد أفندى فى مكانه كما هو، مدرس التربية البدنية فى مدرسة المنيرة الثانوية.

الغـائبـون

وضعت الصورة جانبا. فقد تذكرت أن هناك عددا من المدرسين الذين كانوا يدرسون لنا فى تلك السنة لا يوجدون فيها. وهذا أمر طبيعى، فالمدرسون الذين فى الصورة هم الذين كانوا فى المدرسة يومها وقبلوا أن يجلسوا أمام المصور.

تذكرت مثلا «المسيو مونتى»، مدرس اللغة الفرنسية، الذى قضى أكثر من اثنين وعشرين عاما فى مصر وعشقها بحيث لم يعد إلى فرنسا إلا بعد أن بلغ سن المعاش.

كان المسيو مونتى عندما نقل إلى مدرستنا ـ فى العام السابق على التقاط هذه الصورة ـ قد تجاوز الخمسين من عمره. لكن نشاطه كان يثير إعجابنا. كان دائب الحركة، لا يكف عن الشرح مستخدما كل عضلة فى جسمه، يتحرك فى الفصل ذهابا وإيابا، لا يتوقف فى مكان واحد أكثر من بضعة ثوان. وكان لا يتحدث إلا بالفرنسية، ويتصنع عدم فهم كلمة

واحدة من اللغة العربية. ولم يكن ذلك صحيحا، فقد أدركنا من ردود فعله على بعض الكلمات أنه يفهم معظم ما يقال بالعربية. وكان أسلوبه هذا مفيدا، إذ اضطر التلاميذ إلى محاولة الحديث معه بالفرنسية، مما جعلهم يتقدمون فى تلك اللغة غير المعتادة بالنسبة لنا.

وأذكر أنه فى أول حصة له فى السنة الثالثة، أعطانا مجموعة من الحروف التى تنطق بطريقة مختلفة عن نطقها العادى إذا تجاورت، وطلب منا أن نحفظها عن ظهر قلب بنفس الترتيب الذى كتبه على السبورة. وفى الحصة الثانية، أخذ يطلب منا الواحد تلو الآخر أن نتلو هذه الحروف. وكان زميلنا الجديد إدوار وجيه سعد قد انتقل لتوه إلى مدرستنا من مدرسة الليسيه فرانسيه بباب اللوق. ولم يجد إدوار فائدة من حفظ هذه الحروف بهذا الترتيب الاعتباطى عن ظهر قلب، فقد كانت لغته الفرنسية ممتازة بالطبع. وعندما جاء دوره حاول أن يشرح للمسيو مونتى ذلك. لكنه لم يتركه يتحدث، وقال له بغضب:

ـ اجلس. أنت لن تتعلم اللغة الفرنسية طوال حياتك.

وذهل إدوار لرد فعل الأستاذ، لكنه التزم الصمت وقرر أن يفاجئ المسيو مونتى. لذلك ظل أثناء حصص اللغة الفرنسية صامتا لا يفتح فمه بكلمة واحدة، إلى أن طلب منا المدرس أن نكتب موضوع إنشاء أثناء إحدى الحصص. وفى الحصة التالية، قام بتوزيع الكراسات، وأعطى إدوار كراسته قائلا بهدوء:

ـ ممتاز!

وتصنع أنه لم يلحظ شيئا. لكن إدوار أصبح من يومها صديقا له.

ولاحظت أيضا غياب الأستاذ فاروق بيومى مدرس الرياضيات، الذى كنا نطلق عليه اسم «المدفع الرشاش». كان فاروق أفندى نشيطا هو الآخر، لكنه يتحدث ويشرح بسرعة كبيرة جدا حتى أننا لم نكن نستطيع متابعة ما يقول، خاصة وأن الجبر والهندسة ليسا من العلوم السهلة الفهم. وعندما كنا نعترض على سرعته كان يغضب ويقول: «إن البرنامج طويل وأنه لابد وأن ينهيه».

وعرفنا أن فاروق أفندى يعطى دروسا خصوصية لبعض تلاميذ المدرسة. ولم يكن هذا أمرا مألوفا وقتها، خاصة وأن أحد التلاميذ المتخلفين فى الدراسة استطاع وحده دون جميع التلاميذ، حل تمرين صعب جدا فى امتحان الانتقال من السنة الثالثة إلى الرابعة، وهو الامتحان الذى كان فاروق أفندى يضعه. لذلك فإن سمعته لم تكن فوق مستوى الشبهات.

وغاب عن الصورة أيضا رفعت أفندى رأفت، وهو مدرس الرسم. كان ممشوق القوام، أنيقا متعاليا، يفخر دائما بأسرته التركية الأصل. وكان يعد نفسه فنانا، لذلك كان لا يهتم إلا بمن يجيدون فن الرسم، أما الباقون فكان لا يعيرهم أى التفات، ويتركهم يفعلون ما يريدون. ولكنه كان يفقد أعصابه أحيانا، فيضرب بقبضة يده بعنف كتف التلميذ الذى يستفزه وكنا نحب حصصه على الرغم من ذلك لأنه كان يتركنا نفعل ما يحلو لنا، بشرط ألا نحدث ضجة تسترعى انتباه حضرة الناظر، ويسمح بسهولة شديدة لأى منا أن يترك الفصل إذا أراد، خلافا للمدرسين الآخرين، بل وكان يسمح بالتدخين لمن يريد أن يدخن أثناء الحصة.

ونظرت إلى الصورة مرة أخرى، فلاحظت وجود عم سعيد، بواب المدرسة النوبي يقف فى طرفها، وكأنه يخجل من وجوده.

كان عم سعيد شيخا عندما دخلت المدرسة. وكانت طيبة قلبه مضرب الأمثال. فكان يفتح الباب خلسة للتلاميذ المتأخرين عن موعد الدخول إذا لم يكن حضرة الناظر واقفا. كذلك كان يدور فى حوش المدرسة، فإذا وجد شيئا احتفظ به إلى أن يظهر صاحبه، مهما غلى ثمن هذا الشيء. وكان يقبل المنح المالية من بعض التلاميذ كل شهر، لكنه كان يرفض بكل إباء أى مبلغ من المال إذا كان ذلك مقابل خدمة يطلبها منه التلميذ. وكان لا يفرق قط فى المعاملة بين من يقدم له المنح ومن لا يقدم شيئا. وظل عم سعيد بوابا للمدرسة إلى أن توفاه الله بعد بضع سنوات.

حسن مراد عثمان

أمسكت بالصورة من جديد، وبدأت أدقق فى وجوه التلاميذ، ابتداء من الصف الذى يقف خلف الناظر والمدرسين مباشرة. أول الواقفين فى أقصى اليمين هو الصديق الدكتور حسن مراد عثمان، الأستاذ بكلية الهندسة حاليا.

وحسن مراد عثمان نوبي. وكان أيام الدراسة ضئيل الجسم، نشيطا، حاد الذكاء. وكان ينافس محمد زاهر وهدان على المركز الأول فى الفصل قبل مجيء إدوار وجيه سعد. لكنه كان يختلف عن محمد زاهر في أنه لم يكن يحفظ الدروس عن ظهر قلب، وإنما كان يعتمد على ذكائه. كذلك لم يكن واسع الثقافة مثل إدوار، ومع ذلك فقد كان ذكاؤه يسعفه فى معظم الأحيان.

وعلى الرغم من أن حسن كان ودودا كثير الأصدقاء، إلا أننا لم نكن نعرف عن حياته الكثير، إذ نادرا ما كان يحدثنا عن نفسه. لكن زميلنا ابراهيم أبو بكر كان جارا له، وأخبرنا أن أسرة حسن متواضعة الموارد كثيرة الأولاد، لكنها تتمتع باحترام كبير فى الحى، لأن أحدا لا يسمع لها صوتا، ولا تتسبب فى أية مشكلات، بل على العكس من ذلك، كان أهل الحى يلجأون دائما إلى والده مراد عثمان ليتدخل لتصفية الخلافات بينهم، أو لمحاولة مساعدة من يحتاج منهم إلى مساعدة. وكان حسن التلميذ المفضل لدى المدرسين. فهو دائما يتابع الدروس بعناية واضحة، ويسعى للرد على جميع الأسئلة، وكراساته نظيفة مرتبة كأحسن ما يكون. وكان، بل ولا يزال حتى اليوم، من أصدقاء الأستاذ وصفى تادرس.

وعلى الرغم من أن محمد زاهر وهدان لم يكن يحبه لمنافسته إياه على المركز الأول، إلا أنه لم يكن يستطيع أن يجاهره العداء، لأنه كان بذلك يعزل نفسه عن جميع الزملاء، الذين لم يكونوا ليقبلوا أن يعادى أحد شابا مهذبا رقيقا لم يخطئ فى حق زميل مطلقا. لذلك كان محمد زاهر يداهنه ويتقرب منه ليعرف كيف يذاكر وكيف يحصل على درجات عالية. ولم يكن حسن يصده، مع أنه كان يعلم تماما أن محمد زاهر وهدان لا يحبه. وعلى العكس من ذلك، كان زميلنا منير الوردانى من أصدقائه المقربين.

أما ابراهيم أبو بكر، جاره، فكان أقربنا إليه، ظاهريا على الأقل. فكانا يحضران إلى المدرسة سويا كل صباح ويغادرانها سويا أيضا بعد انتهاء اليوم الدراسى. وكانت هذه العلاقة غريبة للاختلاف الشديد فى طبعيهما. صحيح أن كليهما كان حاد الذكاء، لكن ابراهيم كان على عكس حسن، استفزازيا، لا يعنيه الآخرون كثيرا، ولا يهمه ترتيبه فى الفصل على الرغم من ذاكرته الحديدية، غير مرتب، ولا يحمل فى معظم الأحيان كتبا أو كراسات. الشىء الوحيد المرتب عند ابراهيم كانت هيئته.

وفى العام التالى لالتقاط هذه الصورة، حصل حسن مثلنا على شهادة التوجيهية، وكان ترتيبه السادس على القطر المصرى كله. والتحق بكلية الهندسة، حيث كان الأول طوال سنوات الدراسة الخمسة على قسم البترول، فعين معيدا، ثم أرسلته الكلية فى بعثة إلى رومانيا، حيث حصل على الدكتوراه. وقد كانت فترة إقامته فى رومانيا من فترات حياته

السعيدة، إذ تصادف أن كان صديقه منير الوردانى سكرتيرا ثالثا فى سفارتنا فى بوخارست فى هذه الفترة.

وأخبرنى حسن بعد عودته من رومانيا، وقد أصبح مدرسا بالكلية، أنه خطب إحدى جاراتهم فى الحى، لكنه أردف قائلا إن ابراهيم أقام الدنيا وأقعدها، واتهمه بأنه قد خان صداقتهما، على الرغم من أن هذه الصداقة انتهت منذ مدة طويلة. وقال لى إن ابراهيم يدعى أنه كان قد تقدم لها بالفعل منذ حوالى ثلاثة أعوام، لكنها رفضته بلا تردد، وأنه لم يجد حرجا فى التقدم إليها بعد أن مضت أكثر من ثلاثة أعوام على رفضها لابراهيم، وبعد أن تقدم لها غيره ورفضته أيضا. وعندما سألته عن ظروف القطيعة بينه وبين جاره وزميله، قال لى إن ابراهيم كان يحاول دائما أن يثنيه عن الدراسة، ويسفه له المدرسين والمناهج الدراسية، ويضرب دائما مثل عباس محمود العقاد، الذى لم يحصل على أية شهادة دراسية، ومع ذلك يعد من أكبر الكتاب والمثقفين فى مصر، ويؤكد أن عدد رسائل الدكتوراه التى قدمت عن كتبه يزيد على العشرين. وكان يحاول أن يزوره فى منزله فى الوقت الذى يتصور أنه يذاكر خلاله، لكى يمنعه من المذاكرة، ويحثه على الكتابة مثله فى بعض المجلات المغمورة، ويحاول إغراءه باسمه المطبوع فى هذه المجلات. كذلك كان ابراهيم يسعى إلى تحطيم علاقاته بكل أصدقائه، ويشككه فى كل منهم، حتى ضاق به ذرعا وقرر قطع العلاقة بينهما. وهكذا فإنه لم يره تقريبا منذ أن كان فى السنة الثانية من الكلية. كما أكد لى حسن أنه سأل خطيبته عن علاقتها بابراهيم، فقالت له إنها التقت به فى الشارع مرتين بناء على إلحاحه منذ سنوات طويلة، وأنه بثها حبه، فأخبرته أنه إذا كان حقا يحبها، فعليه أن يكمل دراسته أولا، ثم يتقدم لخطبتها. وحاول أن يلتقى بها بعد ذلك، فرفضت. وبعد عام كامل من المحاولات، تقدم ابراهيم لأبيها طالبا يدها، لكنها رفضت لأنه كان قد رسب عدة مرات فى السنة الأولى بكلية الحقوق حتى فصل من الجامعة، وأن الأمر توقف عند هذا الحد. وكان حسن حائرا. فقد كان معجبا بالفتاة منذ أن كان مراهقا، وصرف النظر عنها عندما قال له ابراهيم إنه يحبها. لكنه عندما علم أنها لا تريد ابراهيم وأنها صدته عدة مرات، بل ورفضته رسميا منذ سنوات مضت، لم يجد حرجا

فى الارتباط بها. وسألنى إذا كان فى تصرفه أى خطأ. وأكدت له أن تصرفه ليس عليه أى غبار، وأن ابراهيم معقد لأسباب كثيرة، وأن عليه أن يتجاهله تماما.

وتزوج حسن من فتاة أحلامه، التى تعمل حاليا مديرا عاما للشئون المالية فى إحدى شركات القطاع العام، وأنجبا أربعة أطفال. وقد أصبح الآن رئيسا لقسم البترول فى كلية الهندسة بإحدى الجامعات، وتتميز حياته بالاستقرار والهدوء. وتعد أبحاثه فى مجال البترول مرجعا عالميا. كذلك اختير منذ ثلاثة أعوام مستشارا لمنظمة الدول العربية المنتجة للبترول التابعة لجامعة الدول العربية.

إبراهيم أبو بكر

يقف ابراهيم أبو بكر عن يمين جاره وصديقه وقت التقاط هذه الصورة، حسن مراد عثمان.

كان أهم ما يتميز به ابراهيم عن جميع من رأيت من البشر هو ذاكرته الحديدية. كان يستطيع أن يحكى حياته كلها منذ أن كان فى الرابعة من عمره حتى الآن بكل تفصيلاتها. وكان إذا قرأ كتابا مرة واحدة ـ وهو على أية حال لم يكن فى حاجة لأن يقرأ أى كتاب أكثر من مرة ـ يستطيع بعد مرور أعوام طويلة أن يتلو عن ظهر قلب مقاطع كاملة منه. لذلك كان يمكنه وقتما يريد أن يصبح الأول، لا على الفصل وحده ولا على مدرستنا فحسب، بل على أية مدرسة فى العالم. ولست أدرى إن كان يمكن أن نعد ذلك نوعا من الذكاء، لكن الذى لا شك فيه هو أن كل من قابل ابراهيم ممن عرفت، أخذ

بغزارة معارفه. ومع ذلك، فلم يكن ابراهيم أول الفصل لأن ذلك لم يكن يعنيه. وقد سألته مرارا عن ذلك، فكان يقول لى إنه يفضل قراءة كتب غير كتب المدرسة، وإنه يشفق على أول الفصل ويحتقره، لأنه يبذل جهودا مضنية فى العمل من أجل ذلك، فى حين أن المركز الأول لا يحتاج لمجهود يذكر، وأنه هو لا تهمه منافسة أحد، فهو يجزم أنه أذكى من الجميع.

لكن ذلك لم يكن صحيحا، فقد أخبرنى حسن مراد ذات يوم أن إسماعيل شقيق ابراهيم حكى له أن إبراهيم يحاول كتابة الشعر والقصة القصيرة، وأنه يبكى أحيانا، ويخبط رأسه فى الحائط لأنه يدرك تماما أنه ليست لديه موهبة الخلق وكان كلما حاول كتابة شىء مزقه فى غضب، أو أحرقه.

وعلى الرغم من قصر قامته، كانت عناية ابراهيم الشديدة بهندامه وبهيئته بصفة عامة مثار تعليقات الزملاء. فقد كان يحاول أن يبدو أنيقا دائما، بل وكان ينجح فى ذلك على الرغم من بساطة ملابسه. كان ينتقى ألوانا مناسبة متناسقة لملابسه المختلفة، ويلف ربطة عنقه بدقة كبيرة. وكانت ثنية سرواله واضحة حادة كالسيف باستمرار، وقميصه دائما نظيفا مكوياً كأحسن ما يكون. وكان شعره مصففا بعناية فائقة، لا تشذ شعرة واحدة عن مكانها. والحقيقة أن ملامحه كانت حسنة وأنه كان مليح الصورة، ولا شك أنه كان يمكن أن يلفت نظر الفتيات بلا مجهود يذكر.

وكان والده أبو بكر أفندى كاتبا لدى أحد المحامين المغمورين فى القاهرة. لذلك كان حلم حياته أن يصبح أحد أولاده الصبية الأربعة محاميا. لكن ولديه الأولين محمد وعيسى اضطرا لدخول مدرسة متوسطة للمعلمين حتى يعاونا والدهما على تحمل أعباء المنزل. وتركزت آماله فى ابنيه ابراهيم واسماعيل. وكان ابراهيم ينجح كل عام بدون أى تفوق. وكان الأب لا يكف عن الضغط عليه لكى يدخل كلية الحقوق. لكن ابراهيم الذى كان واعيا بانعدام قدراته الخلاقة، كان يريد أن يدخل إحدى الكليات العلمية لاعتقاده أنه بذلك يستطيع دائما أن يدعى أنه كان يمكنه أن يصبح أديبا كبيرا لولا أن دراسته العلمية لم تترك له وقتا لذلك.

وأخذ ابراهيم منذ السنة الرابعة، أى فى نفس العام الذى التقطت فيه الصورة، يتردد على بعض المجلات الأدبية غير المعروفة، ينشر فيها بعض المقالات النقدية. وكان يفخر أمامنا كلما ظهر اسمه على مقال منشور. لكن شقيقه كان يؤكد لحسن مراد عثمان أن هذه المقالات كانت على العكس من ذلك، تصيبه بالإحباط والحزن، وكان يقول لشقيقه: «هذا هو أقصى ما أستطيع أن أطمع فيه، لكننى لن أستطيع أبدا أن أكتب قصيدة شعر أو قصة مثل الآلاف الآخرين!».

ويبدو أن ابراهيم كانت تسكنه نزعة شر بسبب ذلك. كان يتلذذ إذا رأى الآخرين يتعذبون، ويرسم على وجهه نظرة مشاركة كاذبة لم تكن تخدع أحدا. كما أنه كان يستفز زملاءه باستمرار ولأى سبب، سواء دب نقاش فى الدروس المقررة أو فى الأدب أو السياسة أو أى موضوع آخر. وكان يعارض كل رأى يقال، وأحيانا يهاجم الرأى ونقيضه، ويسفه كل من يقول شيئا. وكنا نشعر أن عنده رغبة فى التدمير، ويبدو أنها امتدت فشملته هو نفسه. وأصبح معظمنا يتجنبه، ويتوقف الحديث بيننا إذا جاء نحونا. وكان حسن مراد يدافع عنه قائلا إن «ثقافته الواسعة» هى التى تجعله يناقض جميع الآراء، لكنه فى الحقيقة طيب القلب.

وعرفنا من شقيقه اسماعيل ـ الذى لم يكن يصغره إلا بعام واحد ـ أنه يحب إحدى جاراتهم، وأنه يلاحقها بالخطابات التى لا ترد عليها، وأنه يحاول انتظارها عند ذهابها إلى مدرستها لكى يوجه لها كلمات الحب. لكن مدرستها لم تكن تبعد عن منزلها كثيرا، لذلك لم يكن يستطيع أن يبثها كل ما كان يريد أن يقوله لها. وكان يبكى ويتألم فى غرفة نومهما ـ هو واسماعيل ـ إذا نهرته بطريقة جارحة، كما كان يحدث أحيانا عندما يتجاوز حدود الكلام المهذب.

وقد حكى لى حسن بعد أعوام طويلة أن الفتاة وافقت مرة أو مرتين على الوقوف لسماع ما كان ابراهيم يريد أن يقوله لها بعد إلحاح طويل منه، وأن ردها على كلمات الاعجاب كان واضحا: عليه أن يكمل دراسته أولا، ثم يتقدم إلى أبيها لخطبتها إذا كان لايزال راغبا فى ذلك.

لكن ابراهيم لم يكمل دراسته أبدا. فقد توقف عند السنة الثانية فى كلية الحقوق، التى التحق بها رغم أنفه، بعد أن رسب عدة مرات بسبب عدم دخوله الامتحان. واضطر أن يعمل كاتبا فى المحاكم. وتقدم مع ذلك لخطبة جارتهم، لكنها رفضته رفضا قاطعا. وعندما علم بعد ذلك بسنوات أن حسن مراد عثمان خطبها وأنها وافقت عليه، أخذ يطلق عليها الشائعات قائلا إنها كانت تحبه وإنهما كانا متفقين على الزواج. وقد قابلت اسماعيل بعد أن قص على حسن ما حدث، وسألته لماذا تصرف شقيقه ابراهيم بهذه الطريقة، مع علمه بأن رفض الفتاة إياه كان قبل خطبتها لحسن بعدة أعوام. وأعرب اسماعيل عن أسفه لموقف شقيقه، وقال لى إنه قد جن جنونه عندما علم بنبأ الخطبة وأخذ يصيح قائلا: «لقد فضلت هذا الأسود على!» وعبثا حاول اسماعيل أن يذكره بأن حسن صديق العمر، وأن من حق جارتهم أن تختار من تشاء.

وأطاش هذا الحادث بصواب ابراهيم، وأخذ يهذى ويهمل فى عمله إلى أن صدر قرار بفصله. وتدهورت أحواله حتى اختل عقله فعلا، واضطر أبوه إلى إدخاله مستشفى الأمراض العقلية، حيث لا يزال حتى الآن. وقال لى اسماعيل عندما رأيته منذ عدة أسابيع إنه يقول للأطباء إنه أعظم عبقرية أنجبتها البشرية، وإنهم يحتجزونه فى المستشفى حقدا عليه وخوفا منه لعلمهم أنه إذا خرج فسوف يكون أعظم شاعر لا فى مصر وحدها، وإنما فى العالم أجمع، وسيطغى اسمه على أسماء الجميع.

هانى ابراهيم خليـــل

عن يمين ابراهيم أبو بكر، تعرفت على هانى ابراهيم خليل، على الرغم من التغيير الكبير الذى طرأ على شكله منذ أن كان تلميذا.

كان هانى ابراهيم خليل ابن مدرس اللغة العربية، شابا متوسط القامة، نحيلا أسمر البشرة على عكس أبيه المكتنز الأبيض البشرة. وكان هانى فى السنتين الأولى والثانية نشيطا، كثير الحركة والكلام، لا يكاد يكف عن الضحك ومداعبة زملائه. لكنه بعد أن شاهد بعينيه شقيقه التوأم خليل يسقط تحت عجلات الترام، أصبح أميل إلى الهدوء والإنزواء. كذلك تأخر ترتيبه فى الفصل، فقد كان أول الأمر من الأوائل، وأصبح فى السنتين الثالثة والرابعة بين مجموعة الوسط. كان وكأنه يشعر بالذنب لمصرع أخيه أمام عينيه بدون أن يستطيع له فعل شىء، خاصة وأن والده، الذى كان يفضل عليه شقيقه، لم

يبدد عنده ذلك الشعور، بل ربما ساعد بدون قصد على تعميقه. فقد اشتدت حدته فى معاملته، حتى أنه كان لا يجرؤ على النظر فى وجه أبيه عندما يوجه له الحديث فى الفصل، بل يخفض رأسه، وكأنه ارتكب ذنبا.

وقد حكى لنا هانى بعد أيام من وفاة أخيه كيف أنه هو كان قد اعتاد أن يقفز من عربة الترام وهو لم يقف بعد ليركب عربة أخرى، وكيف كان يقف قبل المحطة حتى يقفز فى الترام وهو لايزال سائرا، وكم كان خليل ينهره محذرا إياه من عاقبة ما يفعل. فقد كان خليل – وهو بدين مثل أبيه – مثالا للهدوء، ولم يكن يقوم بأى عمل يعرضه للخطر. لكن خليل أراد ذات يوم أن يقلد شقيقه وبعض زملائه الآخرين، فقفز من الترام قبل أن يتوقف تماما عن السير، فانزلقت قدمه، وسقط تحت العجلات، وصرخ صرخة مدوية. كان هانى كلما حدثنا عن هذا الحادث سالت الدموع من مآقيه. وقال لنا إنه هو أيضا أخذ يصيح وينادى شقيقه باسمه، فأدرك الناس أنه يعرف المصاب، وأخذوا يوجهون إليه الأسئلة، وهو لا يدرى ماذا قال لهم. وجاءت الشرطة، فأخذ يجرى قبل أن يلحظ أحد ذلك، وجاء إلى المدرسة ليخبر أباه بما حدث.

وبعد أن توفى أبوه فى العام التالى على التقاط تلك الصورة، لم يكن معاشه يكفى لكى تواصل الأسرة حياتها. وكان هانى قد حصل لتوه على شهادة التوجيهية، فتوسط له كامل بك الحديدى وعينه موظفا كتابيا فى شركة كبيرة كان مديرها العام عديله.

لكن هانى واصل دراسته فى كلية التجارة، وتخرج منها بعد أربع سنوات. وبتدخل من كامل بك مرة أخرى، نقله مدير الشركة إلى قسم الحسابات. وظل هانى يعمل بهمة ونشاط أكسبته تقدير رؤسائه، فنال عدة ترقيات وأصبح يتقاضى مرتبا محترما.

وكان لهانى، بخلاف والدته، ثلاث شقيقات أصغر منه. وكانت والدته تلح عليه أن يتزوج، وقد تحسنت أحواله لهذا الحد. لكن هانى كان يضحك سائلا إياها لماذا تريد أن تتخلص منه. وكان يرفض باستمرار، على الرغم من إلحاحها، أن يدخل فى مناقشة جادة حول هذا الموضوع. وقد أخبرنى هانى الذى حكى لى كل ذلك أنه كان يريد أن يزوج شقيقاته أولا. وقد اعترف لى أنه يحب زميلة جديدة فى العمل، ويساعدها بقدر طاقته على

أن تتقن فنون الحسابات، لكنه لا يجرؤ على البوح لها بحبه لأنه لن يستطيع أن يتزوجها فورا. وعندما سألته إذا كان يظن أنها ستنتظره إلى أن يحل مشكلاته كلها بدون أن تعلم حتى أنه يحبها وينوى طلب يدها فى وقت لاحق، قال لى إنه أسلم أمره لله. فإذا كانت زميلته بهية لن تتزوج حتى تتزوج صغرى شقيقاته، فإنه سيطلبها للزواج فورا، وإلا فالأمر لله.

وتزوجت شقيقة هانى الأولى، وأخذت أحاول إقناعه بأن يخاطب بهية ويشرح لها ظروفه على الأقل، لكنه رفض ذلك بإصرار، وقال:

ـ يجب ألا نستبق الأقدار، فمن يدرى ما تخبئه لنا الأيام؟

وفى هذه الأثناء، أتمت الشركة التى يعمل بها هانى عام ١٩٦١. وقد ترك الشركة بعد التأميم عدد كبير من الأجانب والمتمصرين، فانفتح المجال أمام هانى حتى أصبح بعد عامين رئيسا لقسم المراجعة وحصل وهو فى الثلاثين من عمره على الدرجة الثالثة، التى توفى والده فى السادسة والخمسين من عمره وهو لا يزال يشغلها.

وعندما تزوجت شقيقته الثانية كررت محاولاتى لإقناعه بمفاتحة بهية بحبه بلا أى جدوى. وقد وقع المحظور بعد ذلك بعدة شهور، إذ جاءت بهية ذات يوم، وقدمت له بطاقة دعوة لحضور حفل عقد قرانها.

واتصل بى هانى طالبا منى أن ألقاه، وأخبرنى بذلك، فحاولت التخفيف عنه قائلا إن شقيقته الصغرى ستتزوج بعد قليل، وسيجد آنسة أخرى مناسبة يتزوجها، لكنه قال لى إنه لم يحب امرأة قبل بهية، ولا يظن أنه سيحب امرأة بعدها.

وتوفيت والدته قبل زواج صغرى بناتها، فحزن هانى على والدته حزنا شديدا، وكأن وفاتها قلبت عليه كل المواجع القديمة. وأخذ يسأل نفسه ـ كما قال لى ـ إن كان قد نجح فى التخفيف عنها بعد وفاة ابنها ثم زوجها وهى بعد شابة، وإن كانت قد رحلت عن الدنيا راضية عنه؟ وأخذت أذكره بكل ما فعله من أجلها، لكنه كان ـ وكأنه يعذب نفسه ـ يقول إنه لم يسعدها بما يكفى.

وتزوجت شقيقته الصغرى فى نفس الشهر الذى أصبح فيه مديرا عاما للشئون المالية بالشركة وعضوا بمجلس إدارتها. وعندما ذهبت إلى مكتبه لتهنئته، سألته إذا لم يكن يشعر بالوحدة، وقد تعدى الأربعين بسنوات، وإذا لم يكن الوقت قد حان ليفكر فى الزواج، فأطلق ضحكة مجلجلة وقال:

ـ ألازلت تفكر فى زواجى؟ لقد قلت لك منذ وقت طويل إننى لن أحب مرة أخرى.

وقد طلب هانى إحالته على المعاش بعد عامين من ترقيته إلى درجة وكيل الوزارة عندما أصبح رئيسا لمجلس إدارة الشركة، وهو لا يكاد يخرج من منزله الآن وهو لم يبلغ بعد الستين من عمره، وإن بدا أكبر من سنه كثيرا. وهو لا يفعل شيئا سوى القراءات ومشاهدة التليفزيون، بينما يقوم على خدمته رجل فى مثل سنه تقريبا، كان يعمل عند الأسرة منذ زمن طويل.

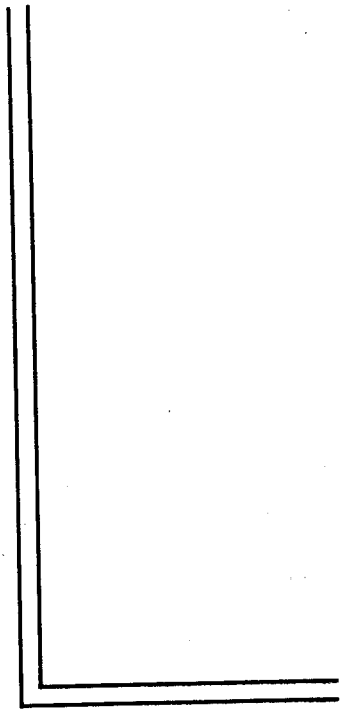

عهدى البيرقدار

أخذت أتطلع إلى وجه الواقف عن يمين هانى ابراهيم خليل، لكننى لم أتذكر عنه أى شيء. لم أتذكر شكله أو اسمه أو أى شيء عنه، وكأننى لم أره فى حياتى من قبل. وعندما يئست تماما من معرفته، انتقلت إلى الواقف عن يمينه. كان عهدى البيرقدار منتصب القامة، وكأنه يريد أن يبدو أطول من قامته الحقيقية، وفى عينيه نظرة جادة، ابتسمت عندما رأيتها. فلم يكن عهدى جادا إلى هذا الحد أيام الدراسة.

عندما دخلت السنة الأولى بمدرسة المنيرة الثانوية، كان عهدى قد رسب فى السنة السابقة، ويعيد السنة الأولى الثانوية. وقد عرفت فيما بعد أن سبب رسوبه لم يكن غباؤه أو بلادته، وإنما المشكلة هى أن أباه كان يعمل فى السلك الدبلوماسى، وسافرت معه أسرته إلى نيويورك، حيث كان عضوا فى الوفد المصرى الدائم لدى الأمم المتحدة. وبعد عودة

الأب إلى مصر، دخل عهدى المدرسة بعد أن قضى أربعة أعوام فى مدرسة أمريكية. وقد اختل توازن عهدى بسبب ذلك، فرسب فى العام الأول، وإن كان قد حصل على درجات شبه نهائية فى اللغة الانجليزية.

وكان عهدى مثار إعجابنا الشديد، فقد كان الوحيد بيننا الذى زار دولة غير مصر، فما بالك وقد قضى أربعة أعوام فى نيويورك بالذات. فاسم نيويورك مرتبط بالأمم المتحدة، والمجتمع الذى يضم دبلوماسيين من جميع أنحاء العالم. وأمريكا من جهة أخرى كانت ترتبط فى ذلك الوقت بمفهومات جذابة، فهى المجتمع الجديد الذى يعرف الديموقراطية والاستقرار والرفاهية، التى كنا نرى آثارها فى أفلام هوليود، وهى الدولة الكبرى الوحيدة التى لم تستعمر دولة أخرى (فلم نكن نعرف آنذاك أن الولايات المتحدة تستعمر قارة بأكملها هى أمريكا الجنوبية، وتستغلها أسوأ استغلال). كذلك فإن موقع أبيه كان يثير خيالنا، إذ أن العمل فى وزارة الخارجية كان له سحر خاص. فقد ارتبط العمل فى السلك الدبلوماسى فى الأذهان بالحفلات فى القصور الفاخرة، وجميع المدعوين يرتدون ملابس السهرة السوداء الفاخرة، والنساء كلهن رائعات الجمال، والجميع يحتسون أرقى أنواع المشروبات ويأكلون ألوانا من الطعام نسمع عنها فى الكتب بدون أن نراها.

وكنا نسأل عهدى عن كل ذلك، لكن ذكرياته التى كان يقصها علينا عن الحياة فى نيويورك لم تكن تشفى غليلنا، واعتقدنا أنه لا يريد أن يحكى لنا كل ما يعرفه.

وقد نشأت صداقتى بعهدى مصادفة. فقد كنت أسير بالقرب من منزلى فى أحد الأيام، وإذ بعهدى يقف فى شرفة فيلا كبيرة وينادى على، ويطلب منى أن أدخل. وترددت، لكننى دلفت من باب الفيلا التى تشبه القصر، بالأعمدة الرخامية التى تنتشر فى كل مكان، والحديقة الغناء التى تحيط بها، فوقف لى بواب الفيلا محييا باحترام كبير. واستقبلنى عهدى مرحبا بى، وجلسنا بعض الوقت نتجاذب أطراف الحديث فى الشرفة التى تتسع مساحتها لبناء مسكن صغير. وقلت له أثناء الحديث إن منزلى قريب جدا من فيلّته. وأخذنا نتبادل الزيارات بعد ذلك، وأصبحنا أصدقاء، خاصة عندما انتقلنا إلى السنة الثانية ثم الثالثة فالرابعة سويا.

وفى إحدى زياراتى له، أدخلنى إلى حجرة الصالون، فوقفت على بابها مشدوداً. كانت مساحتها هائلة. كما كانت فخامة أثاثها ورياشها وأبسطتها ظاهرة حتى لمن لا يعرف شيئا عن قيمتها أو أنواعها. كنت أظن قبل أن أرى هذه الحجرة أن ما نراه فى أفلام السينما من قصور ما هو إلا خيال فنانين، لكننى أدركت لأول مرة أن مثل هذه الفخامة موجودة بالفعل، وأن هناك حقا من يعيشون فى مثل هذا الترف.

ولاحظت على الحوائط صورا ضخمة لمحمد على باشا وابراهيم باشا والخديوى اسماعيل وغيرهم. وقلت ضاحكا لعهدى لكى أدارى ارتباكى أمام كل ما رأيت، إن أباه منافق كبير، إذ يعلق صور الأسرة المالكة فى حجرة صالونه، فابتسم وتحدث فى موضوع آخر. لكن عندما كررت انتقادى فى زيارة تالية، قال لى بلهجة جادة جدا:

ـ سأفضى لك بسر، على أن تعدنى بشرفك ألا يعرفه أى أحد فى المدرسة.

وأدهشتنى لهجته الجادة، فوعدته أن أكتم السر، فأخبرنى أن والدته حفيدة الأمير حسن، ابن الخديوى اسماعيل الذى كان قائدا للجيش المصرى فى حياة أبيه، أى أن والدته ابنة عم الملك فاروق، وأشار لى إلى إحدى الصور قائلا إن هذا هو جده. وبالطبع احترمت وعدى ولم أقل ذلك لأى أحد، إلى أن طلب منا الأستاذ لويس حبيب مدرس الانجليزية أن نكتب موضوع إنشاء عن أسرة محمد على باشا وما قدمته لمصر، فكتب عهدى موضوعا قال فيه إن أسرة محمد على نهبت مصر، واستولت على معظم أراضيها الزراعية، وأقطعت بعضها لعدد من أتباعها المخلصين مقابل خدماتهم لأفرادها، وأن معظم أبناء هذه الأسرة من الشباب المستهتر الذى لا يهمه سوى اللهو بأية وسيلة. وعندما شعر عهدى بالحرج الشديد الذى أصاب الأستاذ لويس، اضطر أن يعترف له بأن هذه الأسرة هى عائلته وأنه خير من يعرفها. وبالطبع عرض الأستاذ لويس الأمر على حضرة الناظر، الذى قرر فصل عهدى لمدة أسبوع. وعلى الرغم من أن عهدى لم يكن يتحدث فى السياسة قط، إلا أننا عددناه بعد ذلك بطلا وطنيا.

وقد استمرت علاقتى بعهدى طوال دراستنا فى الكلية، وعرفت أن أباه عين سفيرا إلى أن أدرك سن المعاش. ولكن عهدى لم يستطع الالتحاق بوزارة الخارجية كما كان يريد

بسبب انتمائه لأسرة محمد على، على الأرجح. وقد أصابه ذلك بخيبة أمل شديدة، ورفض العمل الحكومى، وفتح مكتبا للمحاماة. لكن مكتبه لم يلق رواجا كبيرا لأنه لم يكن يجيد التعامل مع موكليه. لذلك قرر عهدى الحصول على الدكتوراه فى القانون من فرنسا، وسافر فعلا إلى باريس.

وظل عهدى يراسلنى بعض الوقت. كان سعيدا جدا بحياته فى العاصمة الفرنسية، وحصل فعلا على الدكتوراه، واستقر فى إحدى مدن فرنسا ليدرّس القوانين الإسلامية والقانون المقارن فى جامعتها. لكنه توقف عن مراسلتى بعد فترة وفقدت أثره لفترة طويلة.

وبينما كنت أسير فى أحد شوارع القاهرة منذ عامين، رأيت عهدى أمامى. وتعانقنا، وجلسنا نحتسى قدحا من القهوة فى أحد مقاهى وسط المدينة، فقال لى: إنه استقر نهائيا فى فرنسا، وتزوج فرنسية. ثم أضاف ضاحكا أن أولاده لا يعرفون العربية. لكن ضحكته كانت مريرة. وأكد لى أنه حاول أن يقنعهم بفوائد تعلم لغة أسلافهم بلا جدوى. ثم قال لى والأسى مرتسم على وجهه إنه مر أمام فيلّتهم القديمة التى صودرت بعد الثورة لأنها كانت ملك والدته، والتى كانت قد أصبحت تضم مكاتب حكومية قبل سفره لفرنسا، فوجد أنها بيعت لرجل أعمال، هدمها ويقوم حاليا ببناء عمارة سكنية ضخمة تبدو كئيبة مكانها. وافترقنا بعد أن وعدنى عهدى أن يتصل بى كلما زار مصر.

فتحى بسطويسى

يقف فتحى بسطويسى عن يمين عهدى البيرقدار. كان فتحى بسطويسى متوسط القامة، أسمر البشرة، ناعم الشعر ويصففه بعناية، يهتم بهندامه اهتماماً كبيرا. وقد حرص دائما على ارتداء «صديرى» تحت بدلته، وكان الوحيد بيننا الذى يرتدى الصديرى. وكان وفديا متحمسا جدا، إلى حد أنه كان يعد زعيم الطلبة الوفديين فى المدرسة منذ السنة الرابعة. وكان أحد قادة المظاهرات فى المناسبات الوطنية. وعندما ألغت حكومة الوفد معاهدة عام ١٩٣٦، تزايدت حماسته، وأخذ ـ إلى جانب قيادة المظاهرات ـ يجمع الأموال للفدائيين الذين يقومون بعمليات ضد قوات الاحتلال البريطانية فى منطقة قناة السويس. وكان يختفى لمدة يوم أو يومين، يعود بعدها مؤكدا أنه كان فى منطقة القناة، يسلم أموالا وأسلحة ومؤنا للفدائيين. لكن أحدا لم يتأكد من ذلك.

وبعد حريق القاهرة وإقالة حكومة الوفد، اختفى فتحى لمدة يومين، عاد بعدها مدعيا أن الحكومة الجديدة كانت تريد إلقاء القبض عليه، كما ألقت القبض على كل من كانت له علاقة من قريب أو بعيد بعمليات الفدائيين، لكن خاله صديق لوزير الداخلية الجديد، وهو الذى استطاع أن يلغى قرار القبض عليه. لكن الشىء المؤكد هو أن أجهزة الأمن لم تسأل عنه فى المدرسة طوال اليومين اللذين اختفى خلالهما.

وقد حصل فتحى، مثلنا، على شهادة التوجيهية فى نفس الشهر الذى قامت فيه الثورة. وفى السنة الأولى من كلية التجارة التى التحق بها، كان عضوا فى لجنة الطلبة الوفديين. لكنه فى أوائل عام ١٩٥٣، بدأ يتردد خلسة على هيئة التحرير التى أنشئت فى هذه الأيام. وعندما عرف زملاؤه فى لجنة الطلبة الوفديين ذلك فصلوه. وأصبح يجاهر بأنه عضو فى هيئة التحرير، بل وأخذ يردد أنه على اتصال وثيق ببعض قادتها. وكان هو الذى أخبرنى أن الأستاذ حسن حسين عبد التواب، الذى كان يدرّس لنا التاريخ، يتردد هو الآخر على التنظيم الجديد، وأكد لى أنه ذكّره مرة بدفاعه فى المدرسة عن أسرة محمد على، فأدى ذلك إلى شبه قطيعة بينهما. وتأكدت القطيعة نهائيا بعد عام واحد، أثناء أزمة مارس ١٩٥٤. فقد تحمس فتحى فى مساندة جمال عبد الناصر، بينما وقف حسن أفندى فى صف المدافعين عن محمد نجيب.

وكوفئ فتحى على موقفه، فأصبح عضوا فى اتحاد الطلبة الذى عينته الحكومة ـ بعد أن كان الاتحاد منتخبا قبل ذلك ـ وأصبح بعد من زعماء الطلبة الرسميين.

وبعد أن تخرج، عينته الحكومة فورا محاسبا فى وزارة الصناعة.

وظل فتحى بعد من أشد المؤيدين للثورة، وبذل نشاطا كبيرا أيام العدوان الثلاثى، فى صفوف الدفاع المدنى. وعند تأميم الشركات الكبرى عام ١٩٦١، سعى لنقله إلى إحدى الشركات المؤممة، لأن المرتبات فيها كانت أكبر كثيرا من مرتبات الحكومة. ونجح مسعاه.

وانضم فتحى بالطبع إلى الاتحاد القومى فور الإعلان عن تأسيسه. وكان يقضى وقته بين عمله ومقر الاتحاد القومى الذى يعمل به، ولا شىء غير ذلك. لم تكن له حياة خاصة، بل كرسها كلها للعمل.

وعندما تغير اسم الاتحاد الاشتراكى، تحمس فتحى فجأة للاشتراكية التى كان يسبها من قبل. وكانت دراسته فى كلية التجارة قد أتاحت له معلومات كافية عن الاشتراكية، استغلها أفضل استغلال.

وقد اقترح البعض على فتحى أن ينتدب متفرغا فى الاتحاد الاشتراكى، خاصة وأن ذلك كان سيزيد دخله بنسبة عشرين فى المائة، لكنه رفض أن يترك وظيفته ولو فى شكل انتداب مؤقت.

وأخذ فتحى يتقدم فى الشركة التى يعمل بها، ويواصل تردده على مقر الاتحاد الاشتراكى. لكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت ليتزوج ابنة أحد ضباط الجيش كانت تربطه صلة بوالده، وأنجب منها ثلاثة أطفال.

وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧، قبع فتحى فى منزله خوفا من انهيار النظام الحاكم. وعندما عرف أن عبد الناصر سيخطب يوم ٩ يونيو، قرر أن يذهب إلى مقر الاتحاد الاشتراكى، لعله يفهم اتجاه الريح. وعندما أعلن عبد الناصر فى الخطاب أنه تنحى عن الحكم لزكريا محى الدين، وتساءل الحاضرون عما يجب فعله، اقترح فتحى فورا إرسال برقية تأييد للرئيس الجديد. ولما وجد أن أحدا لم يتحمس لاقتراحه، قال إنهم أعضاء تنظيم ملتزم، وعليهم انتظار التعليمات من قياداتهم العليا.

وعندما شعر الحاضرون أن جموع الشعب نزلت إلى الشوارع تطالب عبد الناصر بالبقاء فى الحكم، سارع البعض إلى الانضمام إلى ملايين المتظاهرين، وعاد البعض الآخر إلى منازله، لا يدرى أى موقف يتخذ. وكان فتحى من هؤلاء.

وأدرك فتحى فجر اليوم التالى أن مجرى الأمور بدأ يتضح، فسارع إلى الشارع، وتوجه إلى أهم الميادين، حيث استغل خبرته أيام الدراسة فى قيادة المظاهرات واختراع الشعارات، وأخذ يتزعم الهاتفين المطالبين عبد الناصر بالبقاء حتى بح صوته تماما.

كذلك قاد فتحى عدة مظاهرات منذ يوم وفاة عبد الناصر وحتى يوم جنازته.

وعندما شعر أن أنور السادات بدأ يختلف مع مجموعة رجال الثورة الذين التفوا حول على صبرى، لم يتردد فى مساندة الأخيرين، متصورا أن التاريخ يعيد نفسه، وأنه عاد إلى أيام مارس ١٩٥٤ . وكان يردد دائما فى كل مكان:

ـ ماذا ينتظرون للتخلص منه؟! يجب أن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم!

وعندما ألقى القبض على المجموعة، أصيب فتحى بالذعر، وتوارى عن أى نوع من النشاط. حتى الملاهى ودور السينما كان يخاف أن يغشاها. عاش لمدة عام كامل حياة الموظف المثالى، من منزله إلى عمله، ومن عمله إلى منزله، لا يبرحه إلا صباح اليوم التالى ليتوجه إلى عمله. حتى زيارات الأقارب توقف عنها. حتى واجبات التهنئة والتعازى التى كان يقوم بها بانتظام مهما كانت الظروف، توقف عن القيام بها. كان كالفأر المذعور الذى لا يبارح جحره.

وقد سمع أحد الأيام فى الشركة بعض زملائه يتحدثون عن صحفية أصبحت وثيقة الصلة بالأوساط الحاكمة. وتذكر أنه كان قد رآها فى الاتحاد الاشتراكى وساعدها فى بداية حياتها العملية، فاتصل بها بعد شىء من التردد، لكنها رحبت به، ولم تتردد فى تحديد موعد للقائه عندما طلب منها أن يراها.

وعندما التقى بها قال لها إن أعداءه يروجون عنه أنه معاد للحكومة وأن هذا افتراء، ويريد منها أن تبلغ أى مسئول أن ولاءه للحكومة لا يتزعزع. ووعدته بالرد عليه خلال أسبوع. وقضى فتحى هذا الأسبوع وهو يتساءل إن كان قد ارتكب خطأ يلفت الأنظار إليه، أم أن مسعى هذه الصحفية سيكلل بالنجاح.

وعندما قالت له الصحفية بعد عدة أيام إن من أبلغتهم رسالته تحروا الموضوع، وأنهم لم يسمعوا أنه معاد للحكومة، وأن الحكومة ترحب بكل من يريد أن يتعاون معها، كاد يطير من السعادة. وفى اليوم التالى، توجه إلى مقر حزب مصر (وهو الحزب الذى تأسس بأمر من الرئيس السادات) ، وسجل نفسه عضوا فيه.

وكان فتحى من أوائل الذين تركوا حزب مصر وانضموا إلى الحزب الوطنى الذى رأسه السادات بنفسه، فور تأسيسه. وبمجرد أن شعر باتضاح ملامح سياسة الانفتاح، استقال من

منصبه وفتح مكتبا للاستيراد والتصدير واستغل ـ كما هى العادة ـ صلاته القديمة، بل وأشرك معه فى مكتبه بصورة غير رسمية، أحد المسئولين عن استيراد نوع معين من السلع، فضمن مكانته فى السوق. وكلما تطورت أعماله، نظر إلى أعلى، وشارك هذا وذاك، حتى أصبح يتعامل فى الملايين.

وكتبت الصحف منذ ستة أو سبعة أعوام عن صفقة من المعلبات المخصصة لاستهلاك الكلاب طرحت فى السوق المصرية للاستهلاك الآدمى بعد أن تم تبديل أغلفتها، وأكدت الصحف أن تحقيقا يجرى حول هذه القضية، وأن المسئولين عنها سيلقون جزاء رادعا. وأكد لى أحد الزملاء أن فتحى هو مستورد هذه الصفقة. لكن الصحف لم تذكر شيئا عن هذا الموضوع بعد ذلك. كذلك ترددت شائعات قوية تؤكد أن فتحى يتردد على إسرائيل، ويستورد منها تقاوى زراعية وأسمدة.

وأخبرنى نفس الزميل أن فتحى، عندما اشترى سيارته «الشبح»، تحايل بطرق مختلفة حتى لا يدفع عنها الرسوم الجمركية، وأنه يشاهد أحيانا فى هذه السيارة وهو مضطجع على مقعدها الخلفى، بينما يجلس حارسه الخاص الذى يحمل ترخيصا بحمل السلاح إلى جانب السائق.

مدحت النخيلى

عن يمين فتحى بسطويسى، تعرفت فورا على مدحت النخيلى، بسبب وقاره وتناسق هندامه.

كان مدحت النخيلى ابن عمدة لإحدى قرى الوجه البحرى. ولم يكن مجرد عمدة مثل آلاف العمد الآخرين، وإنما كان حاصلا على بكالوريوس فى الزراعة ومن كبار ملاك الأرض. وعلى الرغم من أنه كان وفديا متحمسا، إلا أنه رفض رفضا قاطعا أن يرشح نفسه عن الوفد فى الانتخابات النيابية لترفعه عن الدخول فى منافسة ضد أشخاص آخرين. لكنه كان يقف مؤيدا لمرشحى حزب الوفد بصورة لا تدع مجالا للشك فى انتمائه الحزبى.

أما مدحت، فقد وفد إلى القاهرة منذ السنة الأولى الثانوية، وأقام عند خاله الموظف فى وزارة الأوقاف، والتحق بمدرستنا.

وكان مدحت متفوقا فى العلوم، متقدما فى اللغات، متوسطا فى الرياضيات، لكنه كان يكره التاريخ والجغرفيا والرسم، لذلك كان ترتيبه فوق المتوسط فقط فى السنوات الأربع الأولى، لكنه تفوق فى التوجيهية بحيث استطاع الالتحاق بكلية الطب كما كان يريد.

وعلى الرغم من أن مدحت لم يكن من أصدقائى المقربين، إلا أننى كنت أكن له الاحترام، لأنه كان بشوشا رقيقا، لكنه جاد فى الوقت ذاته. وكان من أهم ما يميزه عن الكثيرين هو إعراضه عن الصغائر وسماحة نفسه.

وقد قرب دخوله كلية الطب بينه وبين إدوار وجيه سعد، فأصبحا من الأصدقاء، وعن طريق إدوار عرفت قصة غريبة لعبت دورا هاما فى حياته كلها.

عرفت أن والده العمدة نصحه بعد أن أصبح فى السنة الثانية طب أن يستأجر شقة وحده ويستقل بحياته، نظرا لأن بنات خاله قد كبرن وصار من الصعب أن يعيش معهن فى منزل واحد لأن ذلك يقيد حريتهن فى بيتهن. وهكذا أصبح لمدحت شقة فى المنيل.

وكان عدد من أصدقاء مدحت يتردد عليه فى تلك الشقة، وبصفة خاصة زملاؤه فى كلية الطب، فيذاكرون سويا، ويلهون سويا.

وحكى لى إدوار أن مدحت وجد فى الحى فتاة رقيقة الحال تسمى نفسها «سونيا»، كانت تغسل له ملابسه وتكويها، كما كانت تطهو له أحيانا بعض ألوان الطعام. وكانت الفتاة، على قدر كبير من الحسن والذكاء. واكتشف مدحت أن الفتاة أمينة جدا أيضا، وأنها لا تغالى فى مطالبها. وتطور الأمر، فأصبح مدحت يعاشرها جنسيا، لكنها رفضت أن تتقاضى أى مقابل عن تلك العلاقة. وقد حاول أن يقنعها بأن تقبل معاشرة زملائه أيضا بمقابل مادى مجز، لكنها رفضت ذلك بإصرار.

واستمر الحال هكذا لمدة عامين. وفى أحد الأيام، جمع مدحت ثلاثة من أخلص أصدقائه، ومن بينهم إدوار، وفاجأهم باعترافه أنه أحب هذه الفتاة، ويريد أن يتزوجها. واستقبل أصدقاؤه الخبر واجمين، وسأله أحدهم كيف سيخبر والده العمدة بذلك؟ وقال

مدحت إنه لم يفكر بعد فى أى إجراء من أى نوع، وإنما أراد أن يخبر أعز أصدقائه بما يشعر فور تيقنه أنه يحب زينب (وهو اسمها الحقيقى كما اعترفت له).

ناقش الأصدقاء الأمر طويلا، واستقر رأيهم على ألا يتخذ مدحت أية خطوة إلا بعد أن يتأكد من عواطفه. ووافق مدحت على ذلك بشرط، ألا وهو أن يشرع هو وأصدقاؤه فى تعليم زينب القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب واللغة الانجليزية.

وتحمس الأصدقاء لتلك الفكرة، التى كانت بالنسبة لهم وكأنها اختبار قدرة، لحماسة الشباب فى مثل عمرهم. واستقرت زينب فى منزل مدحت، وأبدت همة كبيرة فى التعلم، حتى أنها أجادت القراءة والكتابة بعد أقل من عام واحد، وأصبحت تستطيع القيام بجميع العمليات الحسابية العادية، وقراءة اللغة الانجليزية، بل والفرنسية، التى كان إدوار يلقنها إياها. ووفى مدحت بوعده لأصدقائه، فلم يتزوج زينب رسميا، وإن أصبحا يعيشان سويا حياة الأزواج.

وبعد أن تخرج مدحت بتفوق، قرر أبوه أن يرسله إلى بريطانيا على حسابه الخاص للحصول على زمالة كلية الجراحين البريطانيين، التى تعد أعلى شهادة دراسية فى الجراحة فى العالم. وأخذ مدحت يستعد للسفر بدون أن يقول لأبيه شيئا. وقبل سفره بيومين عقد قرانه على زينب، ثم أخذها إلى القرية لوداع أهله وأقاربه. وذهل أبوه وأمه من هذه المفاجأة، لكنه قال لهم إنه قرر الزواج فى آخر لحظة لإحساسه أنه لن يستطيع أن يعيش وحيدا فى انجلترا، وأنه استطاع أن يقنع أهلها بضرورة زواجهما السريع بعد جهود جبارة. ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع، فهو لم ير أهلها ولا يعرف عنهم شيئا. وعندما سأله أبوه فيما بينهما عن أهلها، أجاب أنهم من أسرة كبيرة محافظة تعيش فى أقاصى الصعيد، ووعده بأن يعرفه بهم عند أول زيارة لمصر. أما الأم، فقد أعجبت بزينب، التى كانت ترتدى ثيابا أنيقة ومحتشمة ابتاعها لها مدحت صباح اليوم ذاته.

وعلى الرغم من أن الأب لم يقتنع، إلا أنه أسقط فى يده.

وسافر مدحت وزينب إلى انجلترا بعد يومين من هذه الزيارة.

وفى لندن، واصلت زينب القراءة بالعربية والانجليزية، فابتلعت روايات نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهما، وقرأت لطه حسين والعقاد والمازنى والدكتور حسين فوزى وغيرهم. كما قرأت روايات بالانجليزية المبسطة أول الأمر، إلى أن تقدمت وأخذت تقرأ أصول الروايات.

كذلك حرص مدحت على أن تحمل زينب بسرعة، حتى لا يثير والده موضوع زواجه مرة أخرى. وبالفعل، رزقا بمصطفى فى لندن.

وأخذت زينب تغشى مجتمعات لندن مع مدحت. فقد كان العمدة يغدق على ابنه، خاصة بعد أن رزق بمصطفى، لذلك لم تكن لديهم مشكلات مالية، بالإضافة إلى أن العمدة كانت له صداقات ببعض كبار الضباط البريطانيين الذين كانوا يخدمون فى مصر، وأحسن هؤلاء استقبال مدحت وزينب، وفتحوا لهم أبواب أرقى الأسر البريطانية. وكانت زينب حريصة على تعلم كل شىء من آداب المائدة إلى أساليب الحديث، إلى طريقة ارتداء الملابس؛ وكانت تلتقط كل ذلك بسرعة مذهلة. واتسعت دائرة معارفهما، فإن المجتمع البريطانى ـ وإن كان شديد المحافظة ـ إلا أنه لا يوصد أبوابه أمام زميل كلية الجراحين. وكان البريطانيون ينادون زينب بلقب «ليدى»، نظرا لأناقتها وحسن ذوقها وإرهاف حسها وأسلوبها المميز فى الحديث.

ورزق مدحت وزينب بابنة أطلقا عليها اسم (علياء) قبل عودتهما من لندن بشهرين، ثم رزقا بولد آخر فى العام التالى لعودتهم.

وقد عمل مدحت مدرسا ورقى فأصبح أستاذا للجراحة فى إحدى كليات الطب المصرية، وعنده الآن مستشفى خاص صغير إلى جانب عمله فى الكلية.

وقد رأيته مؤخرا عندما دعانا إدوار على طعام العشاء. وأخذت أنظر إلى مدحت وزينب، فرأيت أسرة سعيدة، كما لاحظت أن زينب «ليدى» بحق فى كل تصرفاتها.

إدوار وجيه سعد

عن يمين مدحت النخيلى يقف إدوار وجيه سعد، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة، وكأن شيئا أثار ضحكه لحظة التقاط الصورة.

دخل إدوار وجيه سعد علينا الفصل بعد مرور بضعة أيام من بدء الدراسة فى العام السابق على التقاط هذه الصورة فى صحبة حسن حسين أفندى، مدرس التاريخ، مبعوثا عن الناظر. وكان فاروق أفندى بيومى يشرح لنا نظرية هندسية وكيفية حلها. وكنت يومها أجلس فى آخر الفصل على تختة وحدى، لذلك فقد جاء إدوار وجلس بجوارى. وسألته بعد قليل عن اسمه وعن المدرسة التى نقل منها فقال إنه كان فى الليسيه فرانسيه التى توجد فى باب اللوق. وأخبرنى، بعد أن توطدت صداقتنا، أنه ولد الأسرة الوحيد، وأن له شقيقتين تدرسان أيضا فى نفس المدرسة التى كان بها، لكن والده لم يستطع الاستمرار فى

دفع المصروفات لثلاثتهم لارتفاعها المستمر، لذلك فضل أن ينتقل إدوار إلى مدرسة حكومية لكي تستطيع شقيقتاه الاستمرار في المدرسة الخاصة. لكن حتى هذه ألغيت في نفس العام الذى التقطت فيه هذه الصورة، فقد أجريت إنتخابات عامة في أواخر نفس الشهر الذى التقطت فيه الصورة، فاز فيها حزب الوفد بأغلبية كبيرة، وأصبح الدكتور طه حسين وزيرا للمعارف العمومية في الوزارة التى شكلت في الأيام الأولى من يناير ١٩٥٠. وتوقفت الأغلبية الساحقة من التلاميذ عن دفع الرسوم الدراسية، لأن الوزير الجديد أصدر قرارا بعدم منع أى تلميذ عن متابعة الدراسة بسبب عدم تسديد المصروفات. وبعد عدة شهور أخرى، أدلى الدكتور طه حسين بحديث صحفى قال خلاله إن «التعليم كالماء والهواء» لا يجوز أن يحرم منه أحد. وبناء على ذلك تقررت مجانية التعليم في جميع المدارس الثانوية. أما مجانية التعليم الجامعى، فقد قررته الثورة بعد عام واحد من تسلمها مقاليد الحكم في البلاد.

وقد لفتت نظرى جرأة إدوار. فلم يكن يخشى أن يفصح عن رأيه، مهما كان مخالفا للرأى السائد لدى الأغلبية، أو حتى مخالفا لرأى مدرس. ولم يكن هذا معتادا، فالغالب أن الناس تردد رأى الأغلبية ولو لم تكن مقتنعة به تمام الاقتناع ونادرا ما تعارض من يحتل مركزا يعطيه بعض السلطات. وكان ذكاء إدوار فوق المتوسط بكثير، إذ كان يفهم كل مايشرحه المدرسون بسهولة، بل وكثيرا ما كان يدرك ما يريد المدرس قوله قبل أن ينطق به. وقد حدث أكثر من مرة أن راجع مدرسا في شيء يقوله، فإذا هو على حق. لكن تهذيبه فى لفت نظر المدرس إلى خطإ ما كان يجعل المدرسين يقبلون تدخله عن طيب خاطر.

كذلك كان إدوار قارئا دءوباً. لم يكن يقرأ الروايات والمسرحيات فقط مثل حميدى، وإنما كانت قراءاته متنوعة. وكان أول ما رأيت في يده كتابا عن الفلسفة الإغريقية. وعندما سألته لماذا يقرأ ذلك ضحك وقال إن كل كتاب يقرؤه مفيد. وعندما سألته إن كانت قراءة الفلسفة بهذه السهولة، أقنعنى بأن أجرب قراءتها، وأخذ يعيرنى بعض كتب الفلسفة.

ولم يكن إدوار يخشى المشاركة فى المناقشات السياسية التى كانت تدور بين الطلبة فى تلك الأيام. لكنه كان ـ خلافا لمعظم زملائنا ـ لا يؤمن بأى حزب، ويرى أن جميع الزعماء يعملون لمصالحهم الشخصية، وليس من أجل مصر. ولم يكن يستثنى منهم أحدا، حتى الأحزاب غير العلنية، مثل الإخوان المسلمين والشيوعيين.

أذكر أنه فى أعقاب حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢، كان حمدى وأنا نعتقد أن ما حدث هو هبة أعلن بها الشعب سخطه على الاستعمار البريطانى وعلى العرش. أما إدوار، فكان يعارضنا بشدة، ويقول إن ما حدث هو مؤامرة من الإنجليز والملك لوقف المقاومة ضد الاحتلال فى منطقة قناة السويس، وأن الشعب سوف يكمم ويضطهد ويقمع بعد الحريق. وقد أثبتت الأيام أنه كان على حق.

ولم يكن إدوار يبدى اهتماما بالأمور الدينية، بل وكان أحيانا يبدى اعتراضه الصريح على بعض الأفكار التى تتردد فى المحافل الدينية المسيحية والإسلامية على السواء، لكنه كان يكن احتراماً شديدا لمشاعر الآخرين ومعتقداتهم. والغريب أنه كان مع ذلك حريصا أشد الحرص على أداء الواجبات المرتبطة بالعقائد. فكان لابد أن يمر على جميع أصدقائه المسلمين فى أول أيام عيدى الفطر والأضحى ليهنئهم بالعيد. كذلك كان لا يغفر لأصدقائه المسلمين الذين لا يمرون عليه أيام الأعياد المسيحية لتهنئته.

وكانت زيارة إدوار لتهنئته بأعياده تتم وفقا لطقوس لم تتبدل طوال علاقتنا. كنت أتصل به هاتفيا فى الصباح لأهنئه بالعيد ونتفق على موعد مرورى على منزله. وكان الموعد دائما فى الساعة الخامسة مساء. وفى هذا الموعد يتجمع ثلاثة أو أربعة من أصدقائه، فنجلس فى حجرة الضيوف وبعد قليل يدخل والد إدوار، وجيه بك وزوجته وابنتاه، وقد ارتدوا ثيابا جديدة أنيقة، فنحييهم ونهنئهم بالعيد، ثم ينصرفون بدون أن يجلسوا. وبعد قليل تنادى إدوار والدته، فيخرج ويعود حاملا صينية من الكعك، ثم زجاجة أنيقة الشكل تضم نبيذا حلو المذاق، وحولها كئوس صغيرة جدا لمن يرغب فى تذوق هذا النبيذ. وبعد أن نشرب الشاى ونتبادل أطراف الحديث ساعة أو بعض الساعة ننصرف.

وقد أثار إدوار حفيظة زميلنا محمد زاهر وهدان بمجرد مجيئه إلى مدرستنا. فقد كان وهدان يتنافس دائما على أولوية الفصل مع حسن مراد عثمان. لكن إدوار احتكر المركز

الأول بلا منازع منذ وصوله، لذلك كان وهدان يكن له كراهية شديدة. أما حسن مراد عثمان، فلم يكن يأبه لذلك كثيرا، إذ أنه عندما كان يحتل المركز الأول، لم يكن يسعى لذلك بمجهود كبير، وإنما بسبب ذكائه إلى حد بعيد. لكن إدوار كان يتجاهل كراهية وهدان له تماما. وقد قال لي مرة وهو يضحك:

ـ إن حفظ الكتب المقررة عن ظهر قلب لن يفيده شيئا عند كتابة موضوعات الإنشاء وغيرها من المسائل التي تحتاج إلى شيء من الذكاء..

وقد دخل إدوار بعد ذلك كلية الطب، وصار طبيبا مرموقا. وتحمس للثورة حماسة صادقة، قائلا لي إن الضباط الأحرار أدركوا أن رجال السياسة التقليديين لا يعملون لصالح الوطن، لذلك فقد بدءوا من منطلق صحيح. لكنه رفض تماما أن يشارك في أي عمل سياسي.

وقد نجح بعض زملائه منذ عدة سنوات في إقناعه بدخول انتخابات نقابة الأطباء، على أساس أن العمل النقابي ليس سياسيا وأن هدفه الوحيد هو خدمة زملاء المهنة. فخاض المعركة الانتخابية ونجح في أن يصبح عضوا بمجلس النقابة. لكن انتقاداته الحادة وجرأته الشديدة في الدفاع عن آرائه لم تعجب الكثيرين، لذلك لم ينتخب مرة ثانية.

كذلك فإن إدوار رفض تماما أن يدخل في مزايدة رفع رسوم الكشف في عيادته الخاصة مثل الأغلبية الساحقة من زملائه، فبقي رسم الكشف عنده كما كان منذ سنوات طويلة جدا. لكنه في ذات الوقت حدد عدد المرضى الذين يستقبلهم كل يوم، ولا يزيد عددهم واحدا، اللهم إلا في ظروف خاصة جدا عندما تكون حالة المريض سيئة إلى حد أنه لا يمكنه الانتظار لليوم التالي.

وقد تزوج إدوار وأنجب خمسة أولاد، أكبرهم أصبح الآن مهندسا، وشقيقته طبيبة. أما الآخرون فلا يزالون يدرسون في الجامعة.

شكرى محمد حسنين

عن يمين إدوار يقف تلميذ لم أذكر عنه إلا أن اسمه كان (نور)، ولا أكثر من ذلك. لم أعرف عنه أى شيء منذ تركت المدرسة، حتى أننى نسيت باقى اسمه. وكان شكرى محمد حسنين يقف عن يمينه، فى أقصى يسار الصف الأول.

كان شكرى محمد حسنين ممن يعدون «أولاد ذوات» فى المدرسة. فقد كان أبوه من ملاك الأراضى الزراعية، لكنه لم يكن يملك مساحات كبيرة من الأرض، وإنما كون ثروته من زراعة أعشاب نادرة كان يصدرها إلى مصانع الأدوية فى سويسرا. لذلك كان واسع الثراء.

وكان شكرى رقيقا، حالما، حتى أننا كنا نطلق عليه كنية «الشاعر»، على الرغم من أنه لم يدّع يوما أنه يكتب الشعر. وكانت أحب المناقشات إلى نفسه هى المناقشات الفلسفية

وتلك المتعلقة بالمبادئ. وكان يحمل أحيانا كتبا يغطيها بورق الجرائد ليخفى أغلفتها الأصلية، ويرفض أن يطلع أحدا عليها، قائلا إنها كتب شقيقه الأكبر مجدى، وإنه لا يستطيع التفريط فيها. وكنا نعد ذلك نوعا من الغرابة التى تتسم بها أخلاقه. لكن عندما شرح لنا مدرس الجغرافيا الأستاذ رشدى طه نظريته عن الخلاف بين تيتو وستالين، انبرى له شكرى محتدا، وقال إن تيتو خائن للحركة الشيوعية كلها، وإن مصيره، مثل كل الخونة، هو «مزبلة التاريخ». وأدركنا يومها أن شكرى شيوعى متحمس، ولكن أدهشنا أننا لم نلحظ من جانبه أى نشاط خاص.

وقد حكى لى زميلنا حسن مراد عثمان أقرب أصدقاء شكرى فى نفس العام الذى التقطت فيه هذه الصورة، أنه كتب على جدار فى بدروم سرايتهم فى الزمالك شعارات مثل: «عاش كفاح الطبقة العاملة» و«ياعمال العالم اتحدوا»، بدون علم أخيه. وعندما سمع محمد بك حسنين بأمر تلك الكتابات، لم يشك فى أبنائه بالطبع، وإنما شك فى خدم المنزل، وأجرى تحقيقا فى الأمر معهم. ولما لم يتوصل إلى نتيجة، أبلغ الشرطة. وأخذت أجهزة الأمن تراقب الجميع، وأبلغت محمد بك بعد بضعة أيام أن ابنه الأكبر مجدى يمارس نشاطا سياسيا وأنه عضو فى تنظيم شيوعى، وأنه هو الذى كتب هذه الشعارات على الأرجح. وجن جنون الرجل، ولم يضع ثانية واحدة، ووضع مجدى ـ الذى كان طالبا بالسنة الأولى بكلية الصيدلة ـ على أول طائرة متجهة إلى سويسرا، حيث ألحقه بكلية الصيدلة فى إحدى جامعاتها، بوساطة من شركات الأدوية التى كان يبيع لها إنتاجه الزراعى.

ووبخ مجدى شقيقه قبل أن يسافر، واتهمه بأنه ارتكب عملا «سيؤخر الثورة البروليتارية أربع سنوات على الأقل!» (وأوضح لى حسن أن شكرى شرح له أن لفظ بروليتارية يعنى عمالية، ولما سأله لماذا لم يقل شقيقه لفظ عمالية بدلا من تلك الكلمة الصعبة، لم يستطع أن يقدم له سببا واحدا لذلك). ولزم شكرى الحذر منذ ذلك التاريخ، على الرغم من أنه لم يكن عضوا بأى تنظيم شيوعى، وإنما كان شقيقه هو الذى يمارس نشاطا حقيقيا.

وبعد أن حصلنا على التوجيهية، نجح شكرى فى الحصول على درجات عالية، ودخل كلية الطب. وكنت أراه من حين لآخر، وهو يناقش زملاءه وأصدقاءه فى موضوعات

شتى، بحماسة شديدة. وعرفت من حسن أيضا أنه انضم للتنظيم الشيوعى الذى كان شقيقه عضوا فيه، وأنه كثيرا ما ينقل لهم منشوراتهم فى سيارته الصغيرة، التى اشتراها له والده بمجرد أن عرف أنه حصل على مجموع يؤهله لدخول كلية الطب.

ونجح شكرى فى السنة الإعدادية، ثم فى السنة الأولى. وفى الاجازة الصيفية، ألقى القبض على شكرى وسيارته محملة بالمنشورات، وحوكم، وصدر ضده حكم بالسجن خمس سنوات. وقص علىّ حسن بعد ذلك ظروف القضية فقال إن قيادة التنظيم الذى ينتسب إليه شكرى قد قررت أن يرفض أعضاؤها الذين يلقى القبض عليهم رفضا حاسما توجيه الحديث إلى رجال الشرطة السياسية، ولا يتحدثون إلا أمام وكيل للنيابة. وكان شكرى قد ترك سيارته ذات يوم ليشترى شيئا من أحد المحال التجارية وهى مليئة بالمنشورات، فى مكان تمنع فيه إدارة المرور وقوف السيارات. وبعد أن اشترى شكرى ما يريد، عاد محملا إلى السيارة، فوجد أمامها شرطياً بادره بقوله:

ـ لماذا تقف هذه السيارة هنا؟

ولم يتردد شكرى، فقال بحزم:

ـ لن أقول كلمة واحدة إلا أمام وكيل النيابة!

واشتبه فيه الشرطى، ونظر داخل السيارة ورأى المنشورات وقد ربطت ببعضها البعض، وسأله:

ـ ماذا فى هذه الأوراق؟

وتصاعد الموقف، وشكرى يرفض الرد إلا أمام النيابة. وهكذا ألقى القبض عليه.

وعلى الرغم من أن المسجونين السياسيين كانوا يستطيعون استكمال دراستهم من داخل السجن وحضور امتحانات آخر العام، إلا أن دراسة الطب بالذات كانت تحتاج حضور حصص التشريح والجراحة وغيرها، لذلك سجل شكرى نفسه فى كلية التجارة، وحصل على البكالوريوس وهو فى السجن. وقد سمعنا عنه أنه كان مثالا للإنسان ذى المبادئ طوال فترة السجن، وكان لا يألو جهدا لمساعدة جميع المسجونين، سياسيين وغير سياسيين.

وخرج شكرى من السجن فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٨. وعندما ألقى القبض على مجموعة كبيرة من الشيوعيين بعد ذلك بشهرين، كان شكرى بينهم. وقضى فى المعتقل خمس سنوات أخرى.

وفى تلك الأثناء، توفى والده، وعاد شقيقه من سويسرا صيدليا، وواصل عمل أبيه، ونسى أمر السياسة تماما. لكنه كان يكن احتراما كبيرا لشكرى، على أساس أنه استمر فى الطريق الذى لم يستطع هو مواصلته.

وشارك شكرى شقيقه فى إدارة أعمال زراعة المواد الطبية وتصديرها إلى أوروبا، لكنه فى كل مرة يلقى القبض على الشيوعيين، يكون شكرى بين المقبوض عليهم.

وعلى الرغم من زياراته المتكررة للسجون، فقد تزوج شكرى وأنجب ولدين، أصبح الآن أكبرهما صيدليا مثل عمه، والثانى مهندسا معماريا. لكن عدوى الشيوعية انتقلت إليهما، ودخلا السجن مع أبيهما آخر مرة.

وقد سألت شكرى مؤخرا عن قصة إلقاء القبض عليه أول مرة، فانفجر ضاحكا وقال:

ـ نعم، حدث الأمر كما حكى لك حسن. كنت أفكر فى أمر ما عندما وصلت أمام سيارتى، وكانت يداى محملتين بأشياء كثيرة كنت قد اشتريتها، فلم ألحظ الشرطى إلا فى آخر لحظة. ولم أفكر كثيرا فى الموقف، بل تذكرت تعليمات قيادتنا، ورددت على سؤال الشرطى الذى لم أسمعه بكلمات كنت قد أعددتها منذ فترة طويلة لأرد بها عليهم عند إلقاء القبض علىّ!.

وسرح بأفكاره قليلا وأضاف:

ـ ياله من يوم! لكنها مع ذلك كانت أياما رائعة.

ومن حين لآخر، يكتب شكرى مقالا فى جريدة «الأهالى» إذا عَنَّ له أن يقول شيئا. وفى كل من هذه المقالات القليلة، تجد فكرة جذابة ذكية. فهو لا يكتب لمجرد الكتابة مثل الكثيرين.

محمد زاهر وهدان

فى أقصى يمين الصف الثانى يقف زميل لنا لم أستطع أن أتذكر عنه شيئا، وإلى جواره مباشرة يقف محمد زاهر وهدان، الذى تعرفت عليه بعد جهد.

كان محمد زاهر وهدان يتنافس مع حسن مراد عثمان على المركز الأول فى الفصل قبل مجيء إدوار وجيه سعد. وعلى العكس من حسن، كان محمد زاهر لا يكف عن مذاكرة كتب المدرسة ومحاولة حفظها عن ظهر قلب، لكننى أعتقد أنه لم يكن يقرأ كتبا خارج المقرر قط. وكان يسعى دائما إلى خطب ود المدرسين بكل الوسائل. فإذا ما نسى أحدهم شيئا فى حجرة المدرسين مثلا، تبرع محمد زاهر فورا لإحضاره. وكلما وجه المدرس سؤالا، يكون أول من يرفع إصبعه بإلحاح طالبا الإجابة عليه. كذلك فقد كان يرفض أى تعاون مع زملائه. فإذا ما فات أحدنا درس مثلا، وطلب منه أن يعيره كراسته -

إذ أن كراساته كانت مشهورة فى الفصل بحسن ترتيبها ـ رفض ذلك بجفاء وبدون إبداء أسباب هذا الرفض، أو يقدم حجة سخيفة لا تقنع أحداً. كما كان يرفض أن يساعد أحدا أثناء الاختبارات أو الامتحانات، فقد جرت العادة بيننا أن نمد يد المساعدة لمن يحتاج ذلك أثناء هذه الاختبارات من خلف ظهر المشرف على النظام، وذلك بالحديث بصوت منخفض، أو بكتابة بضع كلمات فى ورقة صغيرة نلقى بها لمن يطلب. وكنا نفعل ذلك جميعا، باستثناء محمد زاهر، الذى كان يدّعى أنه لا يريد أن تتشتت أفكاره أثناء الكتابة.

لذلك لم يكن محمد زاهر محبوبا بين التلاميذ. أما المدرسون، فكان بعضهم لا يقدره كثيرا بسبب تهافته على إرضائه، بينما البعض الآخر يستفيد من ذلك لتكليفه ببعض الأعمال البسيطة أو لسماع وشاياته عن زملائه.

وكان محمد زاهر يفخر دائما بأن والده زاهر بك وهدان وكيل وزارة. وكان منصب وكيل الوزارة وقتها منصبا مهيبا. فقد كان عدد وكلاء الوزارات فى مصر كلها لا يتجاوز العشرين، خلافا للحال الآن، حيث أضحى عدد من يشغلون درجة وكيل وزارة كبيرا إلى حد أننى أتساءل أحيانا إذا لم يكن كل موظفى الدولة أصبحوا يحتلون هذه الدرجة!. وكان وكلاء الوزارات وقتها معروفين بالاسم. كان وكيل الوزراة هو الرئيس الحقيقى لوزارته، فمنصب الوزير كان آنذاك منصبا سياسيا، والوزراء يتبدلون مع كل تغيير وزارى، بينما وكيل الوزارة هو الذى يكفل التواصل الحقيقى للعمل داخل الوزارة. وكان زاهر بك يتمتع بسمعة طيبة كرجل نزيه جاد، لكنه كان مشهورا أيضا بصرامته وشدته. ويبدو أنه كان يعامل أولاده بنفس الشدة التى كان يعامل بها موظفيه، بل إننا سمعنا أنه يعاقب أولاده ـ إذا ارتكب أحدهم ذنبا يراه كبيرا ـ بحبسهم داخل أحد حمامات المنزل لمدة أربع وعشرين ساعة مع حرمانهم من الأكل، باستثناء كسرة من الخبز. لذلك كان محمد يرتعد إذا ما هدده أحد بإبلاغ والده بأمر ما. وربما كان ذلك الخوف الذى زرعه أبوه فى نفسه هو فى آن واحد، أهم أسباب تفوقه الدراسى وميله إلى نفاق المدرسين.

وقد درس محمد الحقوق فى الجامعة، لأن جميع رجال السياسة والزعماء قبل الثورة كانوا من خريجى كلية الحقوق، التى كان الطلبة أيامها يطلقون عليها اسم «كلية

الوزراء». ولم يكن هذا اختيار محمد، بل إن زاهر بك هو الذى قرر ذلك. وعلى أية حال، فلم يكن لمحمد أى رأى أو أية ميول خاصة، فإن همه الأول كان إرضاء زاهر بك.

وبعد تخرجه، عمل محمد فى وزارة الخارجية. فعلى الرغم من أن زاهر بك أحيل إلى المعاش بعد الثورة بعامين، إلا أنه كان لا يزال يتمتع بصلات وعلاقات قوية فى الدولة. كذلك فإن نجاح محمد بدرجة «جيد» طوال سنوات الدراسة الأربع جعل أمر تعيينه فى الخارجية سهلا.

وكنت أتابع بعض أخبار تنقلات محمد زاهر عن طريق زميلنا منير الوردانى، الذى كان يعمل هو الآخر فى الخارجية. وبذلك عرفت أنه قضى عامين فى ديوان الوزارة أول الأمر قبل أن يعين سكرتيرا ثالثا فى كوستاريكا، ثم عاد إلى ديوان الوزارة سكرتيرا ثانيا، حيث نقل بعد ثلاثة أعوام إلى طوكيو، وهكذا.

وكانت آخر مرة سمعت فيها عن محمد زاهر وهدان منذ عامين. فقد التقيت بصديق يعد من كبار الشعراء العرب، لم يكن معنا فى مدرستنا، وبالتالى لا يعرف محمد زاهر. حكى لى هذا الصديق أنه كان مدعوا لمهرجان أدبى كبير فى إحدى الدول العربية ليلقى عدة قصائد فى الساعة الرابعة من بعد ظهر أحد الأيام ضمن برنامج المهرجان الحافل بألوان الأدب والثقافة. وكان المهرجان قد أقيم فى مدينة ساحلية تبعد عن العاصمة بحوالى مائتى كيلو متر. وفى اليوم المحدد لتكريم شاعرنا، وكان فى فندقه يتأهب للذهاب إلى مكان الاحتفال، أبلغه أحد المسئولين عن المهرجان بأن السفير المصرى وصل لتوه قادما بسيارته من العاصمة. وقال لى صديقى الشاعر إنه سر لأن السفير قدم من العاصمة خصيصا لحضور حفل الشعر الذى يقام لتكريم شاعر مصرى. وأضاف المسئول أن السفير المصرى يقف حاليا أمام موظف الاستقبال لحجز غرفة يقضى فيها ليلته. وقال لى صديقى إنه توجه من فوره إلى مكان الاستقبال لكى يسلم على السفير ويشكره على حضوره. وفوجئ وهو يقترب بأن السفير يسأل موظف الاستقبال باهتمام شديد:

ـ أين أجد الآن أعضاء فرقة رضا؟

وأشار الموظف إلى إحدى القاعات قائلا إنهم يجلسون بها، فإذا بالسفير يتوجه مسرعا للقاعة، ويعرف نفسه لأعضاء فرقة الرقص الشعبى. ووقف الشاعر الكبير ينتظر انتهاء السفير من حديثه مع راقصى وراقصات الفرقة. وبعد أن حادثهم لبضع دقائق، توجه مرة أخرى إلى موظف الاستقبال وقال له:

ـ سأصعد إلى غرفتى الآن لأنام، وأرجو إيقاظى فى تمام السابعة لكى أستعد لحضور استعراض فرقة رضا. ولم يوجه إليه الشاعر الصديق الكلام بالطبع.

ولم يحضر السفير حفل تكريم شاعرنا، بل حتى لم يسأل عن مكانه لتحيته، على الرغم من أن إدارة المهرجان كانت قد قامت بدعاية كبيرة لحفل تكريم الشاعر، ولا يمكن أن يكون السفير قد فاته معرفة شىء عن هذا الحفل.

وسألت صديقى عن اسم هذا السفير فقال لى:

ـ اسمه ياصديقى محمد زاهر وهدان.

عبدالسميع عبدالستار عبدالبديع

إلى جانب محمد زاهر وهدان يقف عبد السميع عبد الستار عبد البديع. وقد تذكرته فورا بذقنه غير الحليقة ونظرته النارية، وكأنه يتحدى المصور.

كان عبد السميع عبد الستار عبد البديع من جماعة الإخوان المسلمين، لكنه كان نقيض زميله فى الفصل والجماعة محمد عبد التواب الصعيدى. كان منطويا، لا يتحدث مع أحد تقريبا، لم يحلق مطلقا ذقنه التى كانت قد نبتت قبل ذلك بعام واحد، فظهرت فى شكل زغب على خديه، عابس الوجه دائما، وكلما رأى شيئا لا يعجبه، أو قال مدرس عبارات لا يوافق عليها، استغفر الله بصوت عال. وكان خجله مضرب الأمثال، فكلما وجه إليه أحد الحديث، بما فى ذلك المدرسين أثناء الحصص، صعد الدم إلى وجهه.

كان عبد السميع يقول لمن يسأله عن عمل أبيه إنه تاجر، لكننا عرفنا أن والده يملك محل بقالة فى حى السيدة زينب. وكان يرتدى الجلباب، لذلك كان عبد السميع يشعر بالحرج إذا ما جاء إلى المدرسة لتسديد المصروفات أو لأى سبب آخر.

وكان لعبد السميع ثلاثة أشقاء أكبر منه، وشقيقتان وشقيق آخر أصغر منه. وقد عرفنا فيما بعد أن أشقاءه الثلاثة الأكبر منه جميعهم من الإخوان المسلمين.

وعلى الرغم من مظهره الفظ، كان عبد السميع مهذبا، منخفض الصوت إلى حد أننا كنا نطلب منه إعادة ما قال أكثر من مرة عندما يحدث ويكلم أحدا. كما كان المدرسون، عندما يوجهون له سؤالا، يطلبون منه أن يتحدث بصوت مسموع، قبل أن يفتح فمه. كذلك لم يكن يحاول أن يقنع أحدا بأفكاره، بل وكان، على العكس من محمد عبد التواب، يرفض أن يوجه كلمة واحدة إلى زملائه الذين يغشون النوادى، أو الذين يعرف عنهم أنهم يدخنون أو يحبون اللهو بكل أنواعه، البرىء وغير البرىء.

وكان عبد السميع قد أصيب بمرض ألزمه الفراش فترة طويلة عندما كان فى السنة الثانية، لذلك فقد اضطر أن يعيد السنة الدراسية. لذلك فهو لم يكن معنا فى السنتين الأولى والثانية، بل كان يسبقنا بعام دراسى. لكن علاقاته بزملاء فصله القديم لم تكن أفضل من علاقاته بنا.

وقد عرفت فيما بعد أن عبد السميع ألقى القبض عليه مع محمد عبد التواب الصعيدى عام ١٩٥٣، وكان طالبا فى كلية التجارة، وأفرج عنهما بعد شهرين، لكن عبد السميع قرر هجر الدراسة، وعمل مع أبيه فى بقالته، وتزوج وأنجب ولدا أسماه عبد الهادى.

وبعد حادثة المنشية، ألقى القبض عليه مرة ثانية، وقدم للمحاكمة فى نفس القضية التى ضمت زميله محمد عبد التواب الصعيدى. لكن الحكم صدر ضده بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما. وذكرت الصحف وقتها أنه كان أحد المسئولين عن منطقة فى التنظيم السرى، وأنه رفض أن يتعاون مع أجهزة الأمن فى الإرشاد عن زملائه أو عن مخابئ الأسلحة التى كان يعرفها. وقد قال لى محمد الصعيدى بعد خروجه من المعتقل إنه سمع

أن عبد السميع قد تعرض للتعذيب الشديد أثناء التحقيق، واعترف لى أنه كان بالفعل مسئولاً فى التنظيم السرى، بل وأنه كان يدرب الآخرين على استخدام السلاح. كذلك أسر لى أنه عرف بطريقة ما أن عبد السميع كان قد تدرب أيضا على بعض الأسلحة المتوسطة، وأنه كان مرشحا لأن يصبح بعد فترة أحد قادة القطاعات فى التنظيم السرى لما كان يبديه من مهارة فى استخدام السلاح، ومن إخلاص لقضية الإخوان.

وقد أخبرنى شكرى محمد حسنين أنه عندما نقل مع مجموعة الشيوعيين الذين ألقى القبض عليهم عام ١٩٥٩ إلى سجن الواحات الخارجة، عرف أن جماعة الإخوان الذين حكم عليهم فى قضية التنظيم السرى يوجدون بنفس السجن، فسعى إلى لقاء عبد السميع فى عنبر الإخوان، واستقبله هذا بفتور شديد، وأفهمه بطريقة غير مباشرة، وبأدبه الجم وصوته المنخفض، أن لقاءهما غير مستحب. وعلم شكرى من بعض الإخوان الذين لم يكونوا يرفضون الاتصال بالشيوعيين أن عبد السميع مع مجموعة صغيرة من أعضاء التنظيم السرى القدامى، على خلاف مع قادة الإخوان فى السجن، وأنهم يرون ضرورة إعادة إنشاء تنظيم مسلح جديد فى الخارج، وأن العنف هو الأسلوب الوحيد لاقامة نظام حكم إسلامى فى مصر. وأكدوا له أن هذه المجموعة تعيش فى زنزانات خاصة بها، وأنها لا تختلط بباقى الإخوان.

وكف شكرى عن محاولة رؤية عبد السميع، على الرغم من أن هدفه الوحيد كان إقامة صلات إنسانية ـ على حد قوله ـ بزميل دراسة قديم.

وخرج عبد السميع من السجن عام ١٩٧١، ولم نسمع عنه الكثير، اللهم إلا أنه أنجب طفلين آخرين، وأنه يدير محل البقالة الذى ورثه مع إخوته من أبيه الذى كان قد توفى وهو فى السجن.

وعندما اغتيل الرئيس السادات عام ١٩٨١، علمنا أن عبد السميع وابنه عبد الهادى، الذى كان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، قد ألقى القبض عليهما وقدما للمحاكمة لعلاقتهما بالجماعات الإسلامية. لكن المحكمة برأتهما، وخرجا سويا من السجن.

وعلمت من محمد عبد التواب الصعيدى أن عبدالهادى عبد السميع قد تطوع للقتال مع المجاهدين الأفغان لمقاومة الحكم الشيوعى الذى تسانده القوات السوفييتية، وأن والده باركه وشجعه على ذلك. ومن حين لآخر، كان محمد يبلغنى أخبار عبد السميع. لكنه قال لى إنه لا يراه شخصيا، فهو لا يريد لقاءه، لكنه يعرف أخباره من شقيقه الأكبر، الذى، وإن كان متعاطفا تماما مع عبد السميع ويتفق معه فى فكره، إلا أنه أقل منه تشددا فى التعامل مع الآخرين.

وبعد انهيار الحكم الشيوعى فى أفغانستان وانتصار المجاهدين، بدأ هؤلاء ينقسمون على أنفسهم، ودارت بينهم حرب ضروس. وحاولت كل جماعة منهم استمالة العرب الذين كانوا يقاتلون معهم ضد الشيوعيين. وأبلغنى محمد الصعيدى منذ عامين أن عبد الهادى، الذى يقيم فى مدينة بيشاور الباكستانية التى تقع على الحدود مع أفغانستان رفض الانضمام إلى فريق ضد الآخر، وإنما هو يقوم بتدريب متطوعين مصريين وعرب آخرين على القتال وأعمال التخريب لقلب نظم الحكم فى مصر وبعض الدول العربية الأخرى، وأن تهريبهم للبلاد سيتم بمجرد انتهاء تدريبهم تدريبا عاليا. وقلت يومها لمحمد إن هذه مجرد شائعات، ورجوته ألا يكررها خشية على عبد السميع وعلى عبد الهادى نفسه. ولم أكن أدرى ساعتها أن كل ما قاله محمد الصعيدى كان صحيحا مائة فى المائة.

جـابر أحمد حسـن

عن يمين عبد السميع زميل آخر لم أتذكر عنه شيئا، يليه جابر أحمد حسن.

كان جابر أحمد حسن خفيف الظل يثير الضحكات بما يقصه من نكات وفكاهات، ولا يكاد أحدنا يسلم من لسانه، باستثناء كمال سيد الشيال، الذى كان يعد جابر أقرب أصدقائه. وعلى الرغم من أنه كان يقطن حى المنيرة وكمال يسكن جاردن سيتى، إلا أنهما كانا لا يفترقان تقريبا. وكان جابر بالطبع هو الذى يذهب لمنزل كمال بعد انتهاء اليوم الدراسى ليذاكر معه أو ليخرجا سويا إلى دور السينما أو إلى أماكن لهو أخرى يوم الخميس. ولم تكن إمكانات جابر المادية تسمح له بارتياد معظم الأماكن التى يذهب إليها كمال، خاصة نادى الجزيرة الذى كان يتردد عليه بانتظام، لذلك كان هذا الأخير هو الذى يتكفل بتسديد مصروفات جابر.

وكان جابر، بسرعة بديهته وسلاطة لسانه، يقف دائما إلى جانب كمال ويناصره فى كل ما يفعله، حتى أن معظم زملائنا كانوا لا يجرءون على التعرض لكمال حتى لو أخطأ فى حق أحد منهم، خشية أن يسخر منهم جابر ويجعلهم أضحوكة أمامنا. وكان كمال سعيدا بهذه الصداقة، مما كان يجعله يغدق على جابر.

كذلك كان جابر كاتم أسرار كمال. وقد عرفنا فيما بعد قصة كمال مع مديحة، عن طريق جابر نفسه، عندما أسرها إلى أحد الزملاء، وإن كنت لا أذكر أيهم. وعلمنا أن جابر كان يجلس على باب حجرة كمال عندما كان ينفرد بالفتاة حتى يحذره إذا اقترب أحد أفراد الأسرة من الغرفة. ولم يصب جابر بأى حرج عندما انتشر خبر هذه القصة، بل قال بلا مبالاة:

ـ كمال صديقى، ولا حرج فى أن يتستر أحد على صديقه، بل إن من حق الصديق على صديقه أن يتستر عليه.

لكن هذا لم يمنع البعض من أن ينتقد هذه الصداقة التى عددناها من طرف واحد. فقد كانت إرادة كمال هى النافذة دائما، ولم يكن لجابر أن يعترض على شىء يفعله كمال.

كان والد جابر مهندسا فى إحدى الشركات، وأصيب فى مقتبل حياته بإصابات بالغة أثناء عمله بسبب خطإ فى تركيب إحدى الآلات، وتوفى بسبب هذه الإصابات بعد عدة أيام قضاها طريح الفراش فى المستشفى. لذلك فقد حصلت أرملته على تعويض كبير من الشركة. استثمرته فى أحد البنوك لتربى أولادها الأربعة. واضطرت الأم أن تكون شديدة فى تربية أبنائها لخشيتها من أن يفلت زمامهم بسبب عدم وجود رجل فى المنزل. لذلك فقد كانت تفرض عليهم نظاما صارما فى كل شىء، حتى أصبح جابر وشقيقته وشقيقاه مثالا للنظام والتهذيب.

كان جابر أكبر إخوته، لذلك كانت والدته تقول له دائما إنه يجب أن يكون رجل البيت، وأنها تعتمد عليه فى مساعدتها على استكمال تربية إخوته، لذلك فغير مسموح له أن يرسب، ويتعين عليه أن يحاول التخرج بأسرع وقت ممكن حتى يحمل عنها بعض العبء. ومع ذلك، فقد كانت لا تسمح له بأن يشاركها فى اتخاذ أى قرارات بشأن تنظيم

حياة الأسرة. ولم تكن ترتاح كثيرا لعلاقة جابر بكمال، لعلمها أنه لا يستطيع أن يجاريه فى نمط حياته، لكنها كانت فى ذات الوقت تفكر بطريقة عملية، فأقنعت نفسها بأن وضع كمال وأبيه سيد بك الشيال يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة لابنها بعد تخرجه. لذلك لم تكن تعلق كثيرا على ارتباط جابر بكمال، وإنما كانت تحاول أن تنصحه بألا يجاريه فى لهوه.

وقد عرفنا كل هذه الأمور لأن والدة جابر لم تكن تتورع فى أن تقولها له أمام زملائه الذين كانوا يزورونه فى منزله أحيانا، خاصة عندما أصيب بالملاريا ولزم الفراش لعدة أسابيع، زاره خلالها الكثيرون منا.

والتحق جابر بالكلية الحربية بعد حصوله على التوجيهية عام ١٩٥٢، أى بعد قيام الثورة بثلاثة شهور. وقد فسر هو ذلك وقتها بأنه يريد التخرج بأسرع ما يمكن لمساعدة والدته فى تحمل مسئولياتها. لكننى، لمعرفتى بشخصية جابر استنتجت أنه أدرك أن المستقبل للجيش، وأن دخول الكلية الحربية يفتح له الباب واسعا نحو مستقبل باهر.

ولاشك فى أن جابر أبدى نشاطا كبيرا فى الدراسة وفى إبداء إخلاصه الشديد للجيش، إذ أنه سرعان ما عين، بعد تخرجه بقليل، فى المخابرات العامة. وعرفت أنه قطع صلته تقريبا بكمال الشيال، بل وبمعظم زملاء الدراسة.

وقد حكى لى كمال الشيال بعد فترة أنه يحاول الاتصال بجابر لأن والده وضع تحت الحراسة، لكن جابر يراوغه، بل وطلب منى أن أحاول من جانبى أن أبلغ جابر بأية وسيلة ممكنة أنه يسعى للقائه. وعلمت بعد ذلك أن جابر استقبل كمال، ثم فوجئنا بأن الحراسة رفعت عن سيد بك الشيال، وأن جابر تزوج شقيقة كمال. وقال بعض الخبثاء إن هذين الحدثين كانا جزءا من صفقة واحدة.

لكن جابر سرعان ما ترك المخابرات العامة، بل وترك الجيش. وكان هو يردد فى كل مكان أنه هو الذى استقال من عمله، لكننا علمنا أن استقالته طلبت منه لارتكابه أعمالا تتنافى مع المسئولية الأدبية لوظيفته، وإن كنا لم نعرف بالضبط طبيعة هذه الأعمال.

وعلمنا بعد فترة بسيطة أن جابر ارتبط بعقد عمل فى إحدى الدول البترولية بناء على توصية من سيد بك الشيال. وانقطعت أخبار جابر عنا لمدة زادت على عشر سنوات، خاصة وأنه طلق شقيقة كمال بعد أن قضى أول عامين فى هذه الدولة البترولية. وفجأة، بدأت أخباره تنتشر فى بعض الأوساط، وعلمنا أنه أصبح مليونيرا. ثم اتضحت الصورة عندما عرفنا أنه يبيع السلاح لإحدى الدول الإفريقية. لكن شائعات أكدت أنه يبيع السلاح أيضا لحركة تمرد فى نفس هذه الدولة. وكان هو يشيع أحيانا أنه «يقدم السلاح للمقاومة الفلسطينية». لكن أحدا لم يستطع أن يتأكد من صحة هذا الخبر، بل إن البعض سمع أنه باع صفقة من الرشاشات «عوزى» التى تنتجها إسرائيل لإحدى الحركات المتمردة فى دولة إفريقية ثانية. وقد حاولت أن أعرف كيف استطاع جابر أن ينفذ إلى سوق السلاح العالمية، لكننى لم أحصل على إجابة مقنعة.

وأيا كانت صحة هذه الشائعات، فقد أصبح اسم جابر أحمد حسن نارا على علم، بل وقُصّت الحكايات عن الطائرة الخاصة التى ينتقل بها، وعن المزرعة التى يمتلكها فى فلوريدا والقصر الذى يعيش فيه معظم الوقت على ضفاف بحيرة جنيف، وعن حفل زفاف ابنته الذى تم فى مصيف مريبيا الأسبانى، والذى كانت بطاقات الدعوة إليه تضم تذكرة طائرة بالدرجة الأولى ذهابا وإيابا من مكان إقامة المدعو إلى مريبيا.

وقرأت ذات يوم فى الصحف أن «رجل الأعمال المصرى المعروف جابر أحمد حسن اختفى فى ظروف غامضة فى مدينة زيوريخ» وأنه تم اكتشاف جثة حارسه الخاص بعد ثلاثة أيام من الاختطاف. أما هو، فلم يعثر له أحد على أثر حتى الآن، وبعد مضى أكثر من سبع سنوات على اختفائه.

كمال سيد الشيال

إلى جانب جابر أحمد حسن يقف كمال سيد الشيال، ابن سيد بك الشيال، رجل الأعمال الكبير.

وكان لفظ «رجل الأعمال» وقتها يطلق على رؤساء مجالس إدارات الشركات الكبرى وأعضاء مجالس إداراتها لا على السماسرة الذين يستوردون أى شىء مقابل عمولة، كما هو الحال الآن. كان سيد بك الشيال إذن رئيس مجلس إدارة شركة أو شركتين هامتين وعضو مجلس إدارة عدد لا بأس به من الشركات الأخرى، التى كانت آنذاك كلها شركات مساهمة قبل تأميمها. وكانت علامات الثراء واضحة على كمال. فقد كانت نوعية ملابسه مختلفة عن ملابس معظمنا. ولأنه كان رياضيا وحسن الصورة، فإن أناقته كانت واضحة. وحتى عهدى البيرقدار ـ الذى كانت والدته أميرة ـ لم يكن فى مثل

أناقته. كذلك كان يحضر إلى المدرسة فى سيارة فارهة يقودها سائق يرتدى زيا خاصا يشبه الملابس الرسمية. وعندما أصبحنا فى السنة الرابعة التى التقطت خلالها الصورة، كان كمال نفسه يقود السيارة والسائق إلى جواره، ثم يتركها له أمام باب المدرسة.

وعلى الرغم من أن كمال كان يعيش حياة الأثرياء، إلا أنه كان يخشى أباه خشية شديدة. فقد عرف عن سيد بك الشيال أنه رجل صارم لا يغفر الخطأ. وكان كمال كثيرا ما يعتمد على والدته فى الحصول على ما يريده من والده، لأن والدته كانت تقدمه على أشقائه، إذ كان أول من أنجبت من أولاد. لكن سيد بك لم يكن بالرجل السهل، كما أن زوجته نفسها، مع كل حبها لبكيرها، كانت تريد له النجاح، لذلك كانت تربية كمال وأشقائه تتسم بقدر كبير من النظام. لهذه الأسباب كان كمال من التلاميذ المتقدمين، ولم يرسب فى مادة واحدة طوال فترة دراستنا.

وكان كمال مهذبا بشوشا ورقيقا، لكن تهذيبه لم يكن يخفى تماما نوعا من التعالى على زملائه، الذى ربما كان غير مقصود. وكان مظهر هذا التعالى أنه نادرا ما كان يشارك فى حديث طويل مع أحد منا، وإذا تحدث معنا فإنه لا يحكى شيئا عن حياته أو أهله. لكن جابر أحمد حسن كان موضع سره. لذلك فإن كل ما عرفناه عن كمال ـ وهو قليل ـ جاء عن طريق جابر. كان جابر حريصا على عدم إفشاء أسرار صديقه بالطبع، لكنه كان يحكى أحيانا شيئا ما لواحد منا، فتنتشر القصة فى هدوء، بحيث تصبح فى النهاية «سرا يعرفه الجميع!».

وهكذا عرفنا أن كمال عضو فى نادى الجزيرة، وأنه كثيرا ما يتردد على النادى، كما علمنا أنه يذهب إلى حفلات راقصة ويعرف عددا كبيرا من الفتيات، بل وأنه ينظم حفلات راقصة فى منزل أهله، بل وبمعرفتهم. وكنا بالطبع نحسده كلما سمعنا عن اسم فتاة كانت تخرج معه أو تصادقه، ونحاول أن نتخيل شكلها، وما يفعلانه عندما يكونان سويا.

وهكذا عرفنا قصة كمال مع مديحة جمعة.

كانت مديحة جمعة ممن كنَّ يطلق عليهن وقتها «فتيات المجتمع». فهى ابنة جمعة بك، صاحب أملاك فى الصعيد ورثها عن أبيه، لكنه فضل أن يعيش فى القاهرة ويؤجر أراضيه. ثم تزوج سيدة من أسرة عريقة أيضا، أمها بريطانية، وأنجب منها مديحة ومنى. وهكذا نشأت مديحة فى أسرة ثرية مع جدة بريطانية، فأصبحت تتقن لغة جدتها بالإضافة إلى قواعد السلوك الاجتماعى الأوروبى.

وقد تعرف كمال على مديحة فى نادى الجزيرة، وأخذ يحاول أن يتقرب منها، لكنها كانت تصده. وأخذ يسعى إلى أن يدعى إلى جميع الحفلات الراقصة التى يعرف أنها تتردد عليها، ويصادق جميع أصدقائها، والفتاة عازفة عنه. وحكى لنا جابر أن كمال كان يتلمظ غيظا، ويستميت فى محاولات التقرب منها. وقد عرف كمال يوما أن مديحة تقيم بمنزل أهلها حفلا لعيد ميلادها، لكنها لم توجه إليه الدعوة لحضورها، فأرسل لها على عنوان المنزل باقة جميلة من الورد مع «كارت» رقيق يتمنى لها فيه عيد ميلاد سعيد. وقد نصحه جابر أن يرسل لها مع الورد هدية قيمة، فما كان من كمال إلا أن نظر إليه بتعال ولم يعنِ حتى بأن يرد عليه.

وبسبب إصراره وعناده الهادئ، نجح سعى كمال فى نهاية الأمر، وقبلت مديحة أن تصحبه إلى الحفلات الراقصة التى يدعى إليها، إلى أن اتخذت علاقتهما طابعا شبه رسمى، فأصبحت لا تخرج إلا معه، وهو لا يخرج مع فتاة أخرى. وبعد عدة شهور من هذه العلاقة التى ظن الجميع أنها ارتباط أبدى، بدأ كمال يهمل مديحة ويتقرب من فتيات أخريات. وأخذت مديحة تطارده وتتشاجر معه كلما التقيا. وعلى الرغم من ذلك، ظل كمال يرى مديحة ويخرج معها، بدون أن يمنعه ذلك من القيام بمغامرات مع أخريات.

وفى العام التالى لالتقاط الصورة، عرفنا أن مديحة اكتشفت ذات يوم أنها حامل من كمال، وقالت له إن عليه أن يتصرف. وأسقط فى يد كمال، وبدأ يسأل أصدقاءه فى النادى النصيحة. لكن أصدقاءه الذين كانوا فى مثل سنه، أى فى السابعة أو الثامنة عشرة، لم يكن لديهم حل مقنع. وأخذت مديحة تلح عليه أن يجد حلا قبل أن يصبح حملها واضحا. وكانت بالطبع تريد منه أن يفاتح أهله ويتقدمون لطلب يدها بأسرع وقت ممكن.

لكن كمال كان يرتعد خوفا من سيد بك، ويعرف تمام المعرفة أنه لن يوافق مطلقا على زواجه، وهو لم يدخل الجامعة بعد. ولم يجد كمال بدا من مفاتحة والدته فى الأمر. واضطرت السيدة إلى وضع الأمر بين يدى سيد بك، وهى تحاول أن تهدئه. وثار الأب، ووبخ ابنه أشد التوبيخ، وطلب منه أن يقابله بمديحة، وتحدد موعد بالفعل، لكن مديحة جاءت مع والدتها وجدتها البريطانية. وعبثا حاول سيد بك أن يقنع السيدتين بإجراء عملية إجهاض لمديحة، بحجة أن زواج الشابين فى مثل سنهما وظروف دراستهما مستحيل. واشترطت السيدتان أن يخطب كمال مديحة رسميا قبل أى تفاهم. واضطر سيد بك إلى الرضوخ لهما، وتوجه بعد يومين مع السيدة زوجته إلى منزل جمعة بك حيث خطب مديحة لكمال رسميا.

وأجريت عملية الإجهاض لمديحة بعد الخطبة. لكن سيد بك طلب سرا من صديقه الطبيب الذى أجرى عملية الإجهاض أن يعيد لمديحة نوعا من غشاء البكارة. وبالفعل قام الطبيب بذلك. وبعد مضى عدة أسابيع، توجه سيد بك إلى منزل جمعة بك، حيث أبلغ والدة مديحة وجدتها أنه قرر فسخ الخطوبة، وأشار لهما بطريقة لبقة إلى عملية إعادة غشاء البكارة للفتاة.

أما كمال، فقد شعر بالارتياح، كما قال لنا جابر، لأن علاقته بمديحة كانت قد فترت جدا من جانبه. وقد بذلت مديحة جهودا كبيرة لتعيد علاقتها بكمال، لكنه كان يتهرب منها.

وقد تخرج كمال بعد ذلك من كلية الهندسية، كما أراد له سيد بك. وعلى الرغم من وضع سيد بك تحت الحراسة بعد قيام الثورة بقليل، ثم رفعها عنه بتدخل جابر على ما يبدو، ومع أن جميع الشركات التى كان سيد بك يرأسها أو يتمتع بعضوية مجالس إداراتها كانت قد أممت، فقد كانت لديه أملاك كثيرة ومكتب هندسى، جعلته يحتفظ بنفس مستوى معيشته. وقرر سيد بك أن يرسل كمال إلى أمريكا للحصول على الدكتوراة. لكن كمال لم يحصل على أية شهادة إضافية، ولم يعد من أمريكا حيث لا يزال يعيش حتى الآن. وقد مضت فترة طويلة جدا لم يقم كمال خلالها حتى بزيارة مصر، بل إن أهله هم

الذين كانوا يذهبون لزيارته من حين لآخر. لكنه أخذ يتردد على مصر من جديد فى أواخر السبعينات، وهو يصدر لنا الآن من أمريكا بعض السلع. وقد تزوج أمريكية من أصل أيرلندى بعيد، ورزق بثلاثة أبناء. وقد انقطعت صلته بأعز أصدقائه جابر منذ رحيله إلى الولايات المتحدة، بل وقبل أن يطلق جابر شقيقته. وقد حاول جابر، بعد أن أصبح من تجار السلاح، أن يتصل به ويقنعه بأن يتعاون معه ظنا منه ـ على الأرجح ـ أن علاقات كمال فى أمريكا يمكن أن تفيده. لكن كمال أبلغه رفضه ذلك تماما لأنه لا يفهم شيئا فى تجارة السلاح، ولا يريد أن يعرف عنها أى شيء. لكننى سمعت أن كمال كان ثائرا لأنه عد عرض جابر مهينا، فقد أفهمه جابر بلباقة أنه سيكون هو المسئول عن العمل، بينما يكون كمال مجرد مساعد له. كما عرفت أن كمال، عندما سمع باختفاء جابر، أعرب عن أسفه لذلك، لكنه أضاف أن هذه النهاية لا تدهشه كثيرا.

فايز أحمد سليم

عن يمين كمال سيد الشيال يقف فايز سليم بجسده النحيل ووجهه المليح ونظرته الماكرة.

وعندما عرفنا فايز فى السنة الأولى، شعرنا أن أحوال أسرته المالية رقيقة. فقد كانت ملابسه متواضعة، وإن كانت دائما نظيفة، لكننا عرفنا فيما بعد أن أباه كان ثريا، ولكنه فقد ثروته كلها فى ظروف لم نعلم عنها الكثير. وكانت أسرة فايز تتكون من سبعة أشقاء وشقيقات كان هو رابعهم، بالإضافة إلى الأب والأم. لذلك اضطر أبوه إلى قبول عمل لم يكن يكفى احتياجات الأسرة، واضطر ت شقيقته الكبرى فايزة أن تترك الدراسة وهى فى السنة الثالثة الثانوية، لتلتحق بالعمل ككاتبة حسابات فى إحدى الشركات، بتوصية من صديق للأب كانت تربطه به علاقة وثيقة أيام كان يتمتع بالثراء.

وكان فايز ذكيا، لكنه يوظف ذكاءه فى أمور ليست لها أية علاقة بالدراسة أو الثقافة. أذكر مثلا عندما كنا فى السنة الثانية ـ وكانت أعمارنا تتراوح بين الثالثة والرابعة عشرة ـ أن عرف فايز مصادفة أن جابر أحمد حسن يريد شراء دراجة مستعملة بسعر معقول. وأخذ فايز يتحرى بسرعة إلى أن علم أن منير الوردانى لديه دراجة قديمة لا يستخدمها، فعرض عليه شراءها منه. إلا أن منير لم يكن ممن يبيعون شيئا قديما، فقال له إنه يمكنه أن يحضر إلى منزله فى المعادى ويأخذها. وأسرع فايز إلى جابر وقال له إنه سيحصل له على دراجة بسعر معقول جدا، وطلب منه مبلغا من المال مقدما. ووافق جابر للسعر المغرى ـ الذى لا أذكره الآن بدقة ـ ونقده المبلغ المقدم. وذهب فايز إلى المعادى، وأحضر الدراجة، التى كانت فى حالة يرثى لها، فأصلحها بنفسه، ثم اشترى لها دهانا أسود ودهنها به، فأصبحت فى حالة جيدة، وأسلمها لجابر بعد أن قبض باقى الثمن المتفق عليه. والغريب أن جابر أصبح يحضر إلى المدرسة بهذه الدراجة، ولم يتعرف منير الوردانى عليها.

وفى السنة التى التقطت فيها هذه الصورة، كان فايز كثيرا ما يحضر معه أقلام حبر وكراسات وأدوات مكتبية أخرى بالإضافة إلى قمصان أو سراويل أو غير ذلك من الملابس ليبيعها لنا. فقد كان يشترى هذه البضائع من بعض الحوانيت الرخيصة التى توجد فى أماكن كان يرفض تماما أن يدلنا عليها. وأذكر بعد ذلك بعدة سنوات أن فايز كان يتردد على بورسعيد وغزة، ويشترى البضائع التى لم تكن توجد فى السوق بالقاهرة، فيبيعها لزملاء الجامعة أو زملاء العمل.

وبعد أن حصل فايز مثلنا على الثانوية العامة فى العام التالى لالتقاط هذه الصورة، التحق بكلية التجارة. لكن ظروف والده المالية الصعبة جعلت شقيقته الكبرى تتوسط له لكى يعين فى وظيفة بسيطة فى الشركة التى تعمل بها، بينما واصل الدراسة فى الكلية. ويبدو أن شقيقته كانت تتمتع بشخصية قوية، وشعر فايز بالفخر فى بداية عمله بالشركة للمكانة والاحترام الذى كانت فايزة تتمتع بهما. ولم يستطع هو أن يفرض على زملائه فى العمل أن يعاملوه بمثل ما كانوا يعاملون به شقيقته. وأصابه ذلك بنوع من الإحباط فبدأ يستغل المكانة التى كانت فايزة قد حققتها فى الشركة. وقد أخبرنى كل من حسن مراد عثمان وابراهيم أبو بكر، اللذان كانا يقطنان نفس الحى، أن شقيقته كانت دائمة الشكوى منه

لجاراتها التى كانت تربطها بهن صداقة، وأنها عنفته أكثر من مرة. وأكد لى الصديقان أن فايز كان يرتجف رهبة أمام شقيقته، على الرغم من أنها لم تكن تعنفه إلا عندما يرتكب شيئا مخالفا للوائح والقوانين التى تحكم العمل فى الشركة.

وكانت شقيقة فايز قد التحقت هى الأخرى بكلية الحقوق، بعد أن حصلت على الثانوية العامة من المنزل. وقد تخرجت عندما أصبح فايز فى السنة الثالثة من الكلية، وانتقلت للعمل فى إدارة الشئون القانونية بالشركة. وأخذت تصرفات فايز داخل الشركة تتجاوز الحدود. فقد اشتبك مرة بالأيدى مع أحد زملائه لسبب تافه، وضربه حتى سال الدم من أنفه، قائلا له إن شقيقته تعمل فى الشئون القانونية وإنها ستحميه ولن يستطيع أحد أن يمسه بأذى. وبالطبع قدم فايز للتحقيق، فأنكر ما قاله لزميله، لكنه نال جزاء رادعا.

وقد قال لى زميلاى إن فايز اعترف لهما أنه أراد إحراج شقيقته، التى وصفها بأنها مغرورة ومتسلطة. وأكد لى حسن مراد أن فايز يشعر بعقدة نقص تجاه شقيقته، وأنه يعتقد أنه يخشاها ويحترمها فى أعماقه، لكنه يريد إيذاءها بأية طريقة.

وعرفت من حسن مراد أيضا أن فايزة كانت تكتب القصة القصيرة، وأنها كانت تتردد على إحدى المجلات الأسبوعية التى تنشر قصصها، حيث أحبها أحد الصحفيين، وتزوجها. وقد سر فايز أول الأمر، لأن اسم زوج شقيقته الذى يظهر كل أسبوع فى المجلة كان يبهره، لذلك تقرب منه. لكن يبدو، حسب ما أحسه حسن مراد، أن زوج شقيقة فايز لم يسترح له، وكان يعامله بحذر. وانقلب فايز على الصحفى، وأخذ يهاجمه فى كل مكان. وفى الوقت نفسه واصل فايز استهتاره فى العمل، بل وأخذ يزور فى دفتر توقيع الحضور والانصراف حتى يحصل بدون وجه حق على ساعات عمل إضافية. واكتشف تزويره، ففصل من العمل فى نفس العام الذى حصل فيه على البكالوريوس. وقد قاطعته فايزة وزوجها بسبب كل هذه التصرفات.

وبعد أن تخرج فايز، أخذ يبحث عن عمل، لكنه لم يوفق بسرعة، لكنه كان يعرف جارا له يعمل فى الكويت، التى كان البترول قد ظهر فيها حديثا نسبيا، فطلب منه فى خطاب أن يساعده فى البحث عن عمل هناك. وبالفعل، جاءه عقد عمل فى الكويت، وانقطعت عنا أخباره لعدة سنوات.

وقال لى حسن مراد، بعد عودته من رومانيا بثلاثة أعوام، إن فايز عاد من الكويت وقد تزوج من فلسطينية كانت تعيش مع أسرتها التى هاجرت إلى الكويت بعد حرب عام ١٩٥٦، وأنجب ولدين وابنة، وإن أحواله المالية لا بأس بها، لكن ليس مثل غيره ممن كونوا ثروات. وقد فسر هو ذلك بأنه حاول أن يتاجر، ففقد جزءا كبيرا مما كان قد ادخره. كما حكى لى حسن أن فايز ذهب لزيارة شقيقته وزوجها، وقال لهما إنه كان أحمق أيام شبابه، لكنه الآن أصبح عاقلا ورب أسرة. وكانت فايزة فى هذه الأثناء قد تركت العمل فى الشركة، وانتقلت للعمل بالصحافة مثل زوجها. وكانت هى وزوجها ـ مثلها مثل معظم المصريين ـ شديدى التعاطف مع القضية الفلسطينية، لذلك فقد رحبا به وبزوجته وبأولاده أشد الترحيب.

وافتتح فايز مكتبا للمحاسبة، واشترى منزلا صغيرا فى مصر الجديدة استقر فيه مع أسرته. وبدا أن أحواله تعدلت وأن الماضى أصبح شبحا بعيدا. وبعد عامين من عودته، طلب فايز من شقيقته وزوجها أن يقدماه لمسئول كبير فى إحدى الدول العربية كانت تربطهما به صداقة قوية، لأنه يريد أن يورد شيئا تحتاجه هذه الدولة بأفضل شروط يمكن أن تحصل عليها. وترددت فايزة، لكن زوجها قال لها إن فايز أصبح عاقلا وأنه بات رب أسرة، ولا يمكن أن يرتكب حماقات مثلما كان يفعل وهو بعد شاب طائش. وانتهزا فرصة زيارة قام بها هذا المسئول العربى لمصر، وقدما له فايز، الذى استطاع أمامهما أن يقنع الرجل بعرضه.

ولم يستطع حسن مراد أن يعرف بالضبط ما الذى فعله فايز بشأن الصفقة، لكن المؤكد أنه احتال بطريق ما لتوريد أشياء غير المتفق عليها، وقبلها الموظف المختص فى هذه الدولة مقابل رشوة قدمها له فايز. وانكشف الأمر بعد قليل، وقدم الموظف المسئول عن قبول الصفقة للمحاكمة فى بلده، وأصبح فايز مطلوبا فى هذا البلد. أما المسئول صديق فايزة وزوجها، فقد غضب منهما ظنا منه أنهما اشتركا مع فايز فى خداعه.

وقال لى حسن مراد إن فايز تخصص الآن فى تسوية المشكلات الضريبية لكبار الممولين بطرق ملتوية غير مشروعة، وأن اسمه بات معروفا بين رجال الأعمال لأنه ـ كما يقولون ـ يستطيع تسوية أية مشكلة ضريبية بأقل التكاليف الممكنة.

كذلك علمت من حسن أن فايز يشترى عقارات فى مصر الجديدة أساسا، ويجددها ثم يعيد بيعها بمكاسب كبيرة. أما شقيقته وزوجها فقد قاطعاه إلى الأبد.

مصطفى عبدالواحد على

عن يمين فايز أحمد سليم يقف مصطفى عبد الواحد على بقامته المتوسطة ولون بشرته الأسمر، ونظرته الذكية التى تطل من خلف نظارته الطبية.

كان مصطفى عبد الواحد على تلميذا هادئا وقورا، يفضل الاستماع عن الكلام، فإذا تكلم أوجز وأقنع، وإذا انتقد كان لاذعا، ولكن بدون تجريح. كان محبوبا ومحترما، على الرغم من تحفظه فى علاقاته. وكان هدوءه الظاهرى يخفى الأحاسيس والمشاعر الخاصة والعامة التى تضطرم فى نفسه. فهو، وإن لم يكن ينفعل فى مناقشة سياسية أو غيرها قط، إلا أن اهتمامه بالدفاع عن رأيه بمثابرة وإصرار غريبين، كان يفضح حماسته التى يحاول إخفاءها.

وكان مصطفى مثل إدوار وجيه سعد، قارئا ممتازا، يقرأ فى كل الموضوعات. وكانت معلوماته العامة هائلة فى معظم المجالات، حتى فى ألوان الرياضة المختلفة، وإن لم يكن يزاول

رياضة بعينها بصورة منتظمة. حتى السينما وحياة الفنانين الخاصة كان يعرف عنها الكثير. وكنا إذا وجدنا قصاصة ورق مطبوعة ملقاة فى حوش المدرسة، نأخذها ونقدمها له قائلين إنها ربما احتوت على معلومات لايعرفها. ولم يكن يغضب، بل يبتسم ويتناول القصاصة ويقرؤها بالفعل.

وعلى الرغم من ذلك فهو لم يكن من أوائل الفصل، لسبب بسيط هو أنه كان يحب دائما أن تتضمن إجاباته على أسئلة الامتحانات آراء غريبة، تناقض فى كثير من الأحيان ما هو مدون فى كتب المدرسة. ولم يكن ذلك يعجب معظم المدرسين. أذكر مرة ونحن بعد فى السنة الأولى، أن سأله مدرس الجغرافيا عن عدد القارات، فما كان منه إلا أن أجاب قائلا:

ـ سبع قارات.

وكان كتاب المدرسة يؤكد أن عدد القارات خمس. وبدا على المدرس التوتر، وقال له:

ـ حتى إذا عددنا الأمريكتين قارتين منفصلتين، يصبح العدد ست قارات لا سبعا.

وأجاب مصطفى بهدوء:

ـ لقد نسى مؤلف الكتاب أن انتاركتيكا قارة. وكونها غير مسكونة لا ينزع عنها صفة القارة.

ولم نكن قد سمعنا بهذا الاسم من قبل، فانفجر بعضنا ضاحكا. وثار المدرس، وأمر مصطفى بمغادرة الفصل.

وعندما قامت الثورة فى نفس الوقت الذى حصلنا فيه على التوجيهية، تحمس لها مصطفى وأعلن أمامنا تأييده التام لها. وتردد على هيئة التحرير عدة مرات، لكنه لم يقتنع بها، وإن ظل من أشد المؤيدين للثورة. وكان قد دخل قسم العمارة بكلية الفنون الجميلة.

وعلى الرغم من صداقتنا، فقد عرفت عن طريق زملائنا الذين ترددوا على المعتقلات والسجون لا عن طريقه هو، أنه كان يتردد على عائلاتهم، سواء وهو بعد طالب أو بعد

تخرجه مهندسا معماريا. وقد أكد لى شكرى محمد حسنين أن مصطفى كان يزور زوجته بانتظام، عندما دخل السجن بعد الزواج، وكان يساعدها فى قضاء كل حاجاتها وحاجات أولادها، وكان يعرض عليها المساعدات المادية، لكنها لم تكن فى حاجة إليها، بل وكان يصر أن يشترى هدية بسيطة له، يرسلها مع زوجته عندما كان لها حق زيارته فى السجن. وكان يرافقها أحيانا حتى باب السجن يوم الزيارة. كذلك قال لى محمد عبد التواب الصعيدى إنه وقف إلى جانب أسرته عندما قبض عليه فى قضية التنظيم السرى.

وقد صدر أمر تكليف لمصطفى بعد تخرجه، فقضى ثلاثة أعوام موظفا فى وزارة الإسكان، لكن بمجرد أن انتهت فترة تكليفه استقال وفتح مكتبا هندسيا حرا فى حجرة واحدة استأجرها فى وسط القاهرة. فلم يكن والده يستطيع أن يساعده، لأنه كان عاملا فى أحد مصانع النسيج فى شبرا الخيمة. وقد عمل مصطفى بهمة ونشاط كبيرين حتى بدأ مكتبه يدر عليه دخلا. لكنه قضى عامين صعبين.

وظل مصطفى على إيمانه بالثورة، على الرغم من وقفته الشجاعة إلى جانب من كانت الثورة تعتقلهم أو تسجنهم. ولكنه لم يقتنع أيضا بالانضمام إلى الاتحاد القومى. وبعد الانقلاب الذى وقع فى سوريا ضد دولة الوحدة وإنشاء الاتحاد الاشتراكى العربى، سارع بالانضمام إليه قائلا إن هذه هى اللحظة المناسبة للوقوف بحزم إلى جانب الثورة.

وقد تزوج مصطفى قبل ذلك بقليل زميلة سابقة له فى كلية الفنون، لكنها كانت قد تخرجت من قسم التصوير، وكانت قد بدأت تشترك فى عدد من المعارض، ولفتت لوحاتها أنظار النقاد وأنجبا فتاة تلاها بعد عامين غلام.

واشتهرت البنايات التى كان مصطفى يصممها لأنها كانت تتميز بطابع عربى أصيل، يمتزج بالحداثة والعملية. وعلى الرغم من نجاح مصطفى وزوجته فى حياتهما العملية والأسرية والاجتماعية، فقد كان مصطفى يقضى جزءا كبيرا من وقت فراغه فى العمل السياسى فى الاتحاد الاشتراكى. وكان قد ألحق بالعمل فى مكتب الشئون العربية، نظرا لعلاقاته الواسعة والوثيقة التى كانت تربطه بعدد من الطلبة العرب غير المصريين أثناء دراسته الجامعية. وقد قال لى هو إن هذه الصداقات جاءت بمحض المصادفة إلى حد بعيد.

فقد كان أحد زملائه فى قسم العمارة بالكلية فلسطينيا. ولأنه كان يسكن حجرة فوق أحد الأسطح وحده، كثيرا ما كان يزوره لقضاء الوقت معه أو للمذاكرة سويا. وهناك التقى بعدد كبير من الطلبة العرب غير المصريين، كانوا يقضون الوقت فى المناقشات السياسية، التى كانت الشغل الشاغل لمعظمهم. وكان هو بالطبع من أشد المؤيدين لسياسة «التطبيق العربى للاشتراكية» كما كان يقول. ويبدو أن أجهزة الأمن، التى تراقب الطلبة غير المصريين، كانت قد كتبت عنه تقارير تشيد بدوره. لذلك اقترح عليه أحد المسئولين فى مكتب الشئون العربية العمل معه، فوافق على ذلك.

وأصابتنا المفاجأة عام ١٩٦٦ عندما سمعنا بنبأ إلقاء القبض على مصطفى مع عدد آخر من العاملين بمكتب الشئون العربية، وعدد من الطلبة الجامعيين العرب. لكن اعتقاله لم يدم أكثر من شهرين وبضعة أيام. وقد حكى لى أنه اتهم مع زملائه فى المعتقل بتشكيل حزب قومى عربى ماركسى يتبع حركة القوميين العرب التى كان مقرها آنذاك فى بيروت، ومن أبرز عناصرها فى ذلك الوقت الدكتور جورج حبش ونايف حواتمة وعبد الفتاح إسماعيل، الذى أصبح بعد ذلك بسنوات طويلة رئيسا لجمهورية اليمن الديمقراطية. وقال لى مصطفى إنه فعلا على اتصال بحركة القوميين العرب فى إطار عمله فى مكتب الشئون العربية بالاتحاد الاشتراكى، وليس لتكوين تنظيم كما ذكرت أجهزة الأمن. وعلى الرغم من خروجه من المعتقل بدون توجيه أى إتهام رسمى له، إلا أنه استبعد من مكتب الشئون العربية.

كذلك استبعد اسم مصطفى عندما بدأ ـ فى سرية شديدة ـ تشكيل التنظيم الطليعى، مع أن أكثر من جهة رشحته لعضوية هذا التنظيم. ولم يمنع ذلك مصطفى من مواصلة العمل فى تنظيم الاتحاد الاشتراكى بالحى الذى يقطنه.

وقد شارك مصطفى بالطبع فى مظاهرات يومى ٩ و ١٠ يونيو لمطالبة عبد الناصر بسحب استقالته على إثر الهزيمة العسكرية، مثله فى ذلك مثل الملايين فى جميع مدن مصر وقراها ونجوعها، بل وفى جميع أنحاء الوطن العربى، على الرغم من موقف قادة معظم هذه الدول الذين تنفسوا الصعداء لهزيمة الجيش المصرى، ظنا منهم أن النظام المصرى سينهار فورا. وقد خاب ظنهم مؤقتا.

وعندما سمح السادات بتشكيل «المنابر»، انضم مصطفى إلى منبر اليسار الذى تحول فيما بعد إلى حزب التجمع. وظل يعمل فى إطاره إلى أن قرر الناصريون إقامة حزب خاص بهم، فانضم إليهم.

والغريب أن منى، ابنة مصطفى الكبرى، ورثت عن أبيها اهتماماته السياسية، وانضمت هى الأخرى إلى الحزب الناصرى، حيث تمارس نشاطا كبيرا. أما ابنه مازن، فهو فنان تخرج فى كلية الفنون الجميلة من قسم النحت، ولا يشعر بأى ميل للعمل السياسى، مع أن له آراء واضحة فى هذا الشأن. فهو ناصرى مثل باقى أفراد أسرته، على الرغم من أنه كان يبلغ من العمر عاما واحدا عندما توفى عبد الناصر.

سـمير سليمان بولس

عندما رأيت وجه سمير سليمان بولس فى الصورة، ضحكت بصوت مرتفع، حتى خشيت أن تظن زوجتى أننى جننت، فقد كنت وحدى بالغرفة. ذلك أننى كنت قد التقيت به مصادفة منذ ثلاثة شهور عندما ذهبت إلى البنك لكى أصرف شيكا تلقيته، وربما لم أكن لأتعرف عليه فى الصورة لولا ذلك اللقاء. كنت أعرف أن سمير موظف فى بنك ما، لكننى لم أكن أعرف على وجه الدقة فى أى بنك يعمل.

قدمت الشيك إلى الموظف المختص بصرف الشيكات، ففحصه، ثم ترك مقعده واختفى بعض الوقت، ثم عاد، ورد لى الشيك قائلا الجملة التقليدية:

ـ التوقيع غير مطابق.

وحاولت أن أشرح له أن الشيك صادر عن شخص يقطن الاسكندرية، وأنه من الصعوبة بمكان أن أتصل به لإعطائى شيكا جديدا، ربما يقال لى إن توقيعه هو الآخر غير مطابق. وبدا الضيق على وجه الموظف وقال لى بنفاد صبر:

ـ أنا لست مختصا ببحث الشكاوى. اذهب إلى الأستاذ سمير.

ولم يدر بخلدى لحظتها أن الأستاذ سمير ما هو إلا زميل مدرسة المنيرة الثانوية سمير سليمان بولس.

وتوجهت إلى حيث أشار لى الموظف، ودخلت حجرة متواضعة، لكن ليس بها غير مكتب واحد، يجلس عليه شيخ أشيب الشعر، يضع نظارة على طرف أنفه، وكمان إضافيان أسودا اللون يغطيان كمى قميصه الأبيض، وقد انكب على أوراق يقرؤها. ولم يرفع رأسه لينظر إلى إلا بعد مرور عدة ثوان، وقال فى تأفف وكأنه يسب أحدا:

ـ أفندم؟

ولم أعرفه فورا، لكنه تعرف على، وابتسم ابتسامة عريضة أدهشتنى، وناداني باسمى. وركزت نظراتى نحوه لأحاول أن أتذكر هذا الوجه. وكان من الممكن أن أعرفه لو ترك لى الفرصة، لكنه سارع بقوله وهو ينهض واقفا ويمد لى يده:

ـ سمير سليمان بولس.. مدرسة المنيرة الثانوية. ألا تذكرنى؟

وصافحته بحرارة وأنا أؤكد له أننى أذكره جيدا، لكنها المفاجأة، إذ لم أكن أتوقع أن أراه هنا، وادعيت أنه لم يتغير، فانفجر ضاحكا وقال إننى مجامل، لأنه أصبح شيخا وأن شكله تغير تماما. وأصر على أن أجلس لأشرح له مشكلتى.

وقدمت له الشيك شارحا ما حدث، واقترحت عليه أن يتصل تليفونيا على حسابى بمصدر الشيك فى الاسكندرية ليؤكد لهم أنه هو الذى أصدره. ولم يرد على سمير فورا، بل وضع الشيك على مكتبه، وفكر طويلا، ثم نادى على موظف فى الغرفة المجاورة، وأعطاه الشيك طالبا منه أن يراجع جيدا مدى مطابقة التوقيع عليه مع توقيع العميل المودع لدى

البنك. ومضى الموظف بالشيك. وفى هذه اللحظة دخل إلى الحجرة عامل البوفيه سائلا سمير إن كان يريد شيئا، فتصنع سمير أنه تائه فى التفكير وقال باقتضاب:

ـ لا!

ثم، كمن تنبه:

ـ انتظر.

ثم نظر إلى قائلا:

ـ أتريد أن تشرب شيئا.

وتذكرت أخلاق سمير، فابتسمت:

ـ لا شكرا، أنا لا أريد أن أشغلك عن عملك. أعتقد أن المسألة لن تستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاثة.

ولم يعقب سمير، بل أشار بيده لعامل البوفيه أن ينصرف.

وجاء الموظف ومد يده بالشيك إلى سمير قائلا:

ـ التوقيع يشبه توقيع العميل بالفعل، لكنه أصغر حجما، ولا أستطيع أن أجزم بأنه مطابق.

ونظر سمير نحوى وقال:

ـ أنا آسف جدا. ارسل الشيك إلى العميل بالبريد واطلب منه شيكا آخر.

وحاولت أن أستمسك بالصبر، وكررت عليه اقتراحى بأن يخاطب العميل تليفونيا، فرد قائلا:

ـ أنت طبعا زميلى، وأنا أثق بك، لكن البنك ليس له علاقة بزمالتنا. وبمنطق البنك أسألك، من أدرانى أن الرقم الذى ستعطيه لى هو رقم العميل بالفعل؟ وبفرض أننى تأكدت أنه رقم تليفون العميل، كيف أعرف أن الذى يرد على طرف الخط هو العميل ذاته؟ أليس من المحتمل أن يكون شخصا آخراً.

ولم تنجح جميع الحجج فى إقناع سمير بصرف قيمة الشيك.

كان سمير ابن صائغ معروف، لكن مظهره كان دائما متواضعا جدا ولم يكن يغير بدلته إلا مرة واحدة كل عام. وكان ثالث خمسة أولاد، كلهم من الذكور. وكان منزل أهله فى شبرا، لكننا لم نعرف سبب إرساله إلى مدرسة المنيرة. وقد أخبرنا محمد محمد محمد حمدى عبد الغنى، الذى كان يسكن قريبا منه، أنه كان يمر عليه يوميا ليحضرا إلى المدرسة سويا، وأنه كثيرا ما كان يطلب منه أن يدفع له تذكرة الترام، ويعده أن يرد له قيمتها فى اليوم التالى، لكنه لم يكن يفى بوعده، حتى أصبح حمدى يتهرب منه.

وعلى الرغم من أن سمير كان يحمل دائما نقودا، فإنه لم يكن ينفق منها شيئا. أذكر أننى كنت أشرب يوما زجاجة من مشروب أمام مقصف المدرسة، فجاء سمير، وقال لى:

ـ هل يمكن أن تترك لى جرعة فى آخر الزجاجة لأننى أكاد أموت عطشا؟

ونظرت إليه بدهشة وسألته لماذا لا يشرب ماء من الصنبور إذا كان يشعر بالعطش، فابتسم وقال:

ـ أريد أن أذوق طعم هذا المشروب.

وسألته لماذا لا يشترى لنفسه زجاجة، فما كان منه إلا أن قال كعادته:

ـ صدقنى.. ليس معى نقود.

كذلك كان سمير مثالا للنفاق. كان يحاول أن يعرف من محدثه رأيه فى المسألة التى يتحدث فيها، فيسارع بتقديم جميع الحجج التى تؤيد رأيه، وكأنه يريد أن يزايد عليه. أما إذا كنا مجموعة نتحدث، فإنه كان يلتزم الصمت، إلا إذا كان يريد أمرا من أحدنا، فكان يتحمس فى الدفاع عما يقول من آراء. وكان نفاقه أكثر وضوحا مع المدرسين، فكثيرا ما كان يهرع لحمل الكراسات التى يجمعها منا المدرس ليوصلها إلى حجرة المدرسين، أو يحمل عن أحد المدرسين حقيبته منذ لحظة دخوله من باب المدرسة وحتى حجرة المدرسين. وكان ينافس محمد زاهر وهدان فى الوشاية بزملائه للمدرسين، وخاصة للأستاذ حسن

حسين عبد التواب الذى كان يشجعهما على ذلك ويزكى المنافسة بينهما إلى حد أن ذلك التنافس خلق عداوة شديدة بينهما.

ولم أكن قد رأيت سمير منذ تركنا المدرسة لكننى كنت أسمع نتفا من أخباره من بعض الزملاء. ولم يكن أحد منهم صديقه، إذ لم يكن له أصدقاء، لكنهم كانوا يعرفون أخباره مصادفة. لذلك كان من الصعب أن أتعرف عليه بسرعة عندما رأيته فى البنك، فقد ترك الزمن آثاره الواضحة على شكل سمير، إلا أنه من الواضح أنه وقف عاجزا تماما أمام أخلاقه.

منـــير الوردانى

عن يمين سمير سليمان، وفى أقصى يسار الصف الثانى يقف تلميذان لم أذكر اسم أى منهما، وإن كان يخيل إلىّ أنهما كانا صديقين. لكننى بالتأكيد لم أعرف عنهما أى شىء منذ دخلت الجامعة، أما فى أقصى يمين الصف الثالث والأخير، فقد تعرفت فورا على منير الوردانى، سفير مصر فى إحدى الدول الأوربية حاليا.

كان منير الوردانى من مكان ضاحية المعادى، وكان أحد الذين حكوا لنا عن كامل بك الحديدى وطريقة حياته. وكان طويل القامة، حسن الصورة، أشقر الشعر أزرق العينين، فكان جميع الزملاء ينظرون له بشىء من الحسد. وقد فسر هو ذلك بأن أجداده كانوا من الجراكسة، ويضيف ضاحكا:

ـ أى أنهم جاءوا إلى مصر عبيدا، لكنهم بدهائهم حكموا البلاد!

وكان رزين الحركة، هادئا هدوءا غير مصطنع، حتى مشيته كانت تتميز بالوقار والرزانة والرشاقة فى آن واحد. وكان يقول عن نفسه إنه كسول يحب الكسل ولا يتنصل منه. وكان مهذبا فى تعاملاته، لم يقل كلمة بذيئة طوال معرفتى به، ولم يحاول استفزاز أحد أو جرحه. ولم يكن كثير الكلام، لكنه إذا تكلم، قال المفيد. لذلك كان محبوبا على الرغم من مظهره الذى يبدو لأول وهلة متعاليا.

وكان الزملاء كثيرا ما يتحدثون عن مغامراته مع فتيات المعادى، وخاصة الأجنبيات والمتمصرات منهن. وكان إذا سأله أحد عن شيء من هذا، ابتسم وقال:

ـ ما هذا الذى تحكون؟ لست أدرى من يخترع هذه القصص.

لكننى شخصيا رأيته ذات مرة يسير فى أحد الشوارع المتفرعة من ميدان التحرير إلى جانب فتاة جميلة، تبدو غير مصرية، وهما يتبادلان الحديث فى شبه همس، إلى أن وصلت إلى باب مدرسة الفرنسيسكان، فسلمت عليه، ودخلت مدرستها. وكنت على مسافة منهما، ولم أحاول أن ألحق به لأثبت له أننى رأيته. ولم أفاتحه أبدا فى ذلك الموضوع.

وكان منير متفوقا جدا فى اللغة الإنجليزية، بل إنه كان يتحدث بها بسلاسة غريبة. وقد جاءنا مرة مفتش للغة الإنجليزية بريطانى الجنسية، وبالطبع، أراد الأستاذ لويس حبيب أن يبهر المفتش، لذلك وجه سؤالا لمنير، فأجاب بطلاقة. وتدخل المفتش، ووجه إليه سؤالين آخرين أجاب عنهما أيضا، ثم سأله:

ـ هل والدتك بريطانية؟

ورد منير مبتسما:

ـ لا ياسيدى، بل إنها لا تعرف كلمة إنجليزية واحدة.

وهز المفتش رأسه، وغادر الفصل بعد أن حيا الأستاذ لويس.

وفسر لنا منير إتقانه للغة الانجليزية بأن جيرانهم فى المعادى بريطانيون، وأنه يلعب مع أولادهم، وهم فى مثل سنه، منذ الطفولة. لكن البعض أكد أن منير له صديقة بريطانية،

وأنهما يُشاهدان سويا بصفة مستمرة فى نادى المعادى، وأن حديثه المستمر معها بلغتها هو السر فى إتقانه التام لتلك اللغة.

وبعد أن حصلنا على التوجيهية، التحق منير بكلية الحقوق. وطاردت الشائعات منير أيضا فى الكلية. فقد قيل إن إحدى الطالبات تحبه، كما أكد البعض أنه كثيرا ما يذهب إلى بوفيه كلية الآداب لأن له علاقة بإحدى طالبات هذه الكلية.

وعلى الرغم من كسل منير، فقد انتهى من الدراسة فى أربع سنوات، ولكنه لم يحصل على تقدير إلا فى الليسانس، حيث نجح بتقدير «جيد».

وتقدم لمسابقة وزارة الخارجية، وكان من الأوائل، نظرا لإتقانه اللغات الأجنبية (فقد كانت فرنسيته أيضا لا بأس بها» ولثقافته العامة الواسعة.

وانقطعت عنى أخباره منذ ذلك التاريخ، وإن كان حسن مراد عثمان قد أخبرنى بعد عودته لمصر، أنه التقى به فى بوخارست، حيث كان سكرتيرا ثالثا للسفارة المصرية بها، عندما كان حسن يحضر رسالة الدكتوراه، وأنهما قضيا سويا وقتا ممتعا فى رومانيا. ولكننى رأيته ذات يوم من أيام عام ١٩٦٢ يسير فى نفس المكان الذى رأيته فيه يسير مع الفتاة الأجنبية منذ أكثر من عشر سنوات، لكنه كان وحيدا هذه المرة. ورحب كل منا بالآخر، وسألته عن أحواله، فقال لى إنه عائد لتوه من كوناكرى، حيث كان سكرتيراً أول بسفارتنا هناك، وأنه سيقضى عامين فى ديوان الوزارة قبل أن يعين فى الخارج من جديد. ولما سألته إن كان قد تزوج، نظر إلى بدهشة وقال:

ـ ألا تدرى أننى تزوجت ابنة كامل بك الحديدى؟

وهنأته وسألته عن أخبار ناظرنا، فأخبرنى أنه على خير ما يرام، وأنه لا يزال يقضى معظم وقته فى الاهتمام بحديقته. كذلك سألته إن كان قد أنجب، فضحك قائلا:

ـ صبرا على، فالحياة فى كوناكرى لم تكن سهلة!

وخلال العامين اللذين قضاهما فى مصر، التقينا مرارا، وتوطدت بيننا صداقة جديدة، بعد صداقة المدرسة. وقد عرفت منه أخبار زميلنا محمد زاهر وهدان، الذى كان يعمل هو الآخر فى وزارة الخارجية.

وعندما قرأت نعى كامل بك فى الصحف، ذهبت إلى السرادق الذى أقيم فى جامع عمر مكرم لتعزية منير، لكنه كان فى بيرو، ولم يستطع العودة إلى مصر فى الوقت المناسب لحضور الجنازة.

وأصبح منير كلما قضى بعض الوقت فى مصر، يتصل بى ونلتقى مع بعض الزملاء القدامى.

وبعد معاهدة كامب ديفيد، عُرِضَ على منير ـ وكان وقتها وزيرا مفوَّضا ـ أن يعمل فى السفارة المصرية فى تل أبيب، فرفض رفضا قاطعا.

وقد مضت أكثر من ثلاث سنوات منذ رأيت منير لآخر مرة، فهو الآن سفير لدى إحدى الدول الأوربية.

محمد عبد التواب الصعيدى

يقف محمد عبد التواب الصعيدى بجوار منير الوردانى.

كان محمد عبد التواب الصعيدى هو الآخر من أبناء الأثرياء. كان والده الحاج عبد التواب من الصعيد فعلا، جاء إلى القاهرة صبيا، وقام ببعض الأعمال الصغيرة قبل أن يصبح مقاول أنفار فى أعمال البناء، ثم مقاول بناء. وقد تزوج إحدى قريباته جاء بها من القرية بعد أن بدأت أحواله تتحسن، وأنجب منها ثمانية أولاد كان محمد الرابع بينهم. وهكذا فإن محمدا ولد بعد أن أصاب والده الثراء، فلم يعرف الفقر. لكنه كان يسمع من والده وأقاربه كيف فتح الله على أبيه فانتقل من حال إلى حال. وكان والده يذكر دائما فضل الله عليه، ولا يكف عن شكره وحمده، فنشأ محمد فى جو من التقوى. لذلك لم يكن غريبا أن ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين بمجرد أن أصبح يافعا، خاصة وأن أخاه الأكبر فوزى كان من زعماء الحركة فى مدرستنا قبل أن ينتقل إلى كلية الطب.

وكانت حماسة محمد للجماعة مضرب الأمثال. فكان لا يكف عن مناقشة كل زملائه فى أمور الدين أولا، ثم فى أهداف الإخوان مع من يشعر أنه يستطيع التأثير عليه. كان يبدأ عادة فى الإلحاح على زملائه بضرورة الصلاة والتمسك بتعاليم الدين، ويحاول، ليس بالإقناع فقط، بل وبالإحراج، أن يجعلهم يصلون معه. فكان كثيرا ما يمر يوم الجمعة قبل الصلاة على منازل الذين قرر أن يهديهم إلى سواء السبيل، ولا يبارحها إلا وهم معه للذهاب إلى المسجد القريب. وكان ينجح فى معظم الأحيان، لكن كان يحدث أحيانا أنه بمجرد أن يترك أحدهم للاهتمام بزميل جديد، يكف الأول عن الصلاة ويعود لسيرته الأولى. لكن محمدا لم يكن ييأس، ويعاود الكرة. فإذا ما انتظم أحدهم فعلا، كان يبدأ فى مناقشته فى أهداف جماعة الإخوان ويحثه على الانضمام إليهم.

وكان محمد دمث الأخلاق، يتحدث فى صوت هادئ، ويسعى إلى أن يكون فى كافة تصرفاته مثالا طيبا للمسلم الصالح. وقد سألته مرة كيف يستطيع المسلم الشاب غير المتزوج أن يحل مشكلته الجنسية، فحدثنى طويلا عن «التسامى» بالصلاة ولعب الرياضة وغيرها. ولما أبديت عدم اقتناعى بتلك الحلول على المدى الطويل، اعترف لى أنه شخصيا يحاول ألا يقع فى «الغواية». لكنه إذا استعصى الأمر عليه، فإنه يذهب إلى إحدى المنحرفات، ولكنه قبل أن يضاجعها يطلب منها أن تقول له «زوجتك نفسى»، ثم يقول هو نفس الشىء. وبعد إنتهاء العملية «يطلقها طلاقا بائنا». واستدرك قائلا إنه لا يفعل ذلك إلا فى حالات نادرة، وأن هذه «الفتوى» ليست من بنات أفكاره، وإنما أفتى له بها «أحد الإخوان».

وفى الجامعة، واصل محمد نشاطه. وعندما نشبت الأزمة بين الثورة وجماعة الإخوان عقب شهر عسل قصير، اعتقل محمد لمدة شهرين، ثم أفرج عنه. وبدأ يبدى حرصا شديدا فى نشاطه السياسى، لكن حماسته السابقة كانت قد طبعته بحيث كان من الصعب عليه أن يخفى اتصالاته بصورة تامة. لكننى فوجئت بعد حادث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية وإلقاء القبض على عدد كبير من الإخوان، بأن اسم محمد عبد التواب الصعيدى ورد فى قائمة المتهمين فى قضية التنظيم السرى المسلح للإخوان، بل

وقدم للمحاكمة على هذا الأساس مع زميلنا الآخر عبد السميع عبد الستار عبد البديع. وقد صدر عليه الحكم بالسجن عاما واحدا، لأنه كان مجرد «جندى» بسيط فى التنظيم السرى، ولم يكن من قادته. هكذا قالت الصحافة وقتها، لكن شائعات لا أدرى مدى صحتها ذكرت أن الذين صدرت فى حقهم أحكام بسيطة قد تعاونوا مع أجهزة الدولة للكشف عن زملائهم، لذلك عوملوا بالرأفة.

على أية حال، لم يخرج محمد من المعتقل فورا، بل قضى فيه حوالى عامين. وقد زارنى بعد خروجه من السجن بشهرين تقريبا. ولم تكن آراؤه قد تغيرت، لكنه أصبح أكثر حرصا فى تصرفاته. وعندما سألته عن مدى حصة الاتهام الذى وجه إليه، راوغنى أول الأمر، لكنه سرعان ما اعترف لى أنه كان عضوا فى التنظيم السرى فعلا، وأنه تدرب مع مجموعة من الإخوان على استخدام أنواع خفيفة من السلاح فى الصحراء، وأنه كان ضمن المرشحين لمواصلة التدريب على أنواع أكثر تطورا من الأسلحة. وحكى لى عن الخلافات داخل قيادة الإخوان حول جدوى التنظيم السرى.

واستطاع محمد أن يعود إلى الكلية بعد فترة، وحصل على الليسانس. وكان شقيقه الأكبر، الدكتور فوزى، الذى لم يكن عضوا فى التنظيم السرى، قد قضى ثلاثة أعوام فى المعتقل قبل أن يفرج عنه. وبعد خروجه من المعتقل بقليل، غادر مصر هاربا إلى المملكة العربية السعودية، حيث عمل طبيبا بإحدى مستشفياتها. وكان يراسل محمدا ويغريه بأن يلحق به فى السعودية، حيث يستطيع باتصالاته أن يجد له عملا بسهولة.

واستطاع محمد بالفعل أن يغادر مصر إلى السعودية، حيث بقى مدة طويلة وانقطعت عنى أخباره. وفى منتصف السبعينات، دق جرس التليفون فى مكتبى ذات يوم، وكان المتحدث محمدا. والتقينا فإذا بى أجد شخصا غريبا. أصبح محمد مكتنزاً بطىء الحركة بعد أن كان دائما نحيلا ونشيطا. كما لاحظت مظاهر الثراء الشديد عليه. جاء للقائى فى سيارة فاخرة، يرتدى ثيابا تبدو غالية الثمن، وقد أطلق لحيته، وأمسك فى يده مسبحة من العنبر، تزين جبهته «زبيبة» كبيرة واصطحبنى إلى كافتيريا واحد من أكبر فنادق القاهرة، حيث لاحظت أنه استقبل بترحاب كبير. وأخبرنى أنه عاد إلى مصر منذ حوالى عام كامل،

لكنه كان يرتب أحواله ليستقر نهائيا، لذلك لم يتصل بى فورا. كما قال لى إنه تزوج حديثا، وقد أصبح فى الأربعين من عمره، وأن زوجته حامل فى طفله الأول. وأسر إلى أنه افتتح شركة للمقاولات لكى يواصل عمل أبيه. ولما أبديت دهشتى، لأن دراسته ليست لها أية علاقة بأعمال المقاولات، ضحك ضحكة مجلجلة ثم قال لى إننى أفكر بطريقة تقليدية، وأن الإنسان يجب أن يعمل فى المجال الذى يشعر أنه سيحقق له ـ بعون الله ـ أكبر الأرباح. وسألته عن شقيقه الدكتور فوزى، فقال لى إنه لا يزال يعمل فى العربية السعودية، وأن الحكومة سمحت له بفتح عيادة خاصة إلى جانب عمله فى المستشفى، وأن أحواله المالية أصبحت على خير مايرام، وأنه كثيرا مايزور مصر الآن. ثم ضحك قائلا إنه لا يزال مخلصا لجماعة الإخوان، وعلاقته بهم وثيقة، بل وثيقة جدا كما قال.

ومضت سنوات كنت ألتقى خلالها بمحمد لماما، عندما يتصل هو بى. لكنى كنت أتابع نشاطه فى مجالات كثيرة من خلال الإعلانات الهائلة التى كانت الصحف تنشرها. فشركات «الصعيدى»، وكلها تقريبا شركات لاستيراد سلع من الخارج، يمتد نشاطها إلى قطاعات كثيرة. وكان آخرها «شركة استثمار إسلامية»..

وعندما تفجرت فضائح الريان والسعد وغيرهم، أخذت أتابع الصحف بحثا عن اسم «الصعيدى». لكن إعلانات شركات الصعيدى استمرت، وإن اختفت تقريبا الإعلانات عن شركة الاستثمار بالذات. لكننى علمت أنها لاتزال تعمل. كما أخبرنى محمد فى آخر لقاء لنا منذ أكثر من عام، أنه أصبح لديه سبعة أولاد، أكبرهم دخل الجامعة.

وقد أكد لى صديقى فوزى الشرقاوى أنه قد سمع من مصادر يثق فيها أن محمدا يقدم المساعدات المالية لبعض الجماعات المتطرفة، لكن أحدا لا يستطيع إثبات ذلك عليه.

عبد الغفار محمدين

عن يمين محمد عبد التواب يقف تلميذ نحيل أسمر الوجه، حاولت عبثا أن أتذكر اسمه. كل ما تذكرته عنه هو أنه رسب هذا العام ولم ينتقل معنا إلى السنة الخامسة. وإلى جواره يقف عبد الغفار محمدين.

كان عبد الغفار محمدين صعيديا هو الآخر، يتحدث بلهجة أهل الصعيد ويفخر بذلك، ويرفض تماما أن يقلد لهجة «المصاروة»، كما كان يقول. كان مرحا خفيف الظل، يحبه الجميع. وكان المدرسون أنفسهم يكتمون بصعوبة ابتساماتهم كلما تكلم عبد الغفار.

كان والده مزارعا يمتلك قطعة أرض صغيرة فى إحدى قرى الوجه القبلى، له من الأولاد سبعة، آخرهم عبد الغفار. ولم يكمل أشقاؤه الأربعة تعليمهم، بل أخذوا يساعدون أباهم فى زراعة الأرض التى يمتلكونها، بالإضافة إلى أرض أخرى يستأجرونها. أما

شقيقتاه، فقد تزوجتا من ولدى عميهما فى سن صغيرة. وقرر الأب أن يتيح لابنه الأصغر فرصة استكمال تعليمه حتى النهاية، بل وأرسله إلى القاهرة عند أحد أقاربه لاعتقاده أن مدارس العاصمة أفضل من مدارس الأقاليم. وعلى أية حال، كان لابد لعبد الغفار أن يتغرب، لأن قريتهم لم يكن فيها مدرسة ثانوية، وكانت عاصمة محافظتهم تبعد عن القرية كثيرا، ولم يكن من الممكن لعبد الغفار أن يذهب إلى المدرسة فى الصباح ويعود منها آخر النهار.

لكن أطرف الحصص بالنسبة لعبد الغفار كانت حصص اللغة الإنجليزية. فقد كان الأستاذ لويس حبيب يحاول عبثا أن يعلم عبد الغفار النطق بطريقة معقولة. وكان عبد الغفار يحاول، لكنه سرعان ما يقول:

ـ أنا أتحدث الانجليزية الصعيدية.. لابد أن هناك صعيدا فى انجلترا، وأن أهله يتحدثون مثلى..

ويبتسم الأستاذ لويس، ويتوقف عن المحاولة.

ولم يكن عبد الغفار ساذجا على الإطلاق، لكنه كان يحب أن يمثل دور الساذج الذى لا يدرك كل ما يدور حوله. وكانت تحدث نتيجة لذلك مفارقات تجعلنا ننفجر بالضحك. ولم يكن عبد الغفار من أوائل الفصل، لكن ترتيبه كان بين المتقدمين.

وتصادف أن ارتبط عبد الغفار بعلاقة صداقة مع حمدى، الذى أخذ يمده ببعض الروايات، التى خلبت لبه، وفتحت أمامه عالما جديدا، فكان يقول أحيانا:

ـ يابوى! أكل هذا يحدث فى العالم؟ إن أهل قريتى يظنون أنهم أحياء، لكنهم والله أموات مدفونون تحت الأرض بدون أن يدروا!

وفى العام التالى لالتقاط الصورة، اختار عبد الغفار القسم العلمى، وأعلن لنا أنه ينوى دخول كلية الطب، فإن قريتهم لم تنجب طبيبا واحدا طوال تاريخها، وأنه قرر أن يكون هو ذلك الطبيب. وعندما حصل على التوجيهية، اكتشف أن مجموعه ينقص ثلاث درجات للقبول فى كلية الطب. ولأول مرة رأيت عبد الغفار حزينا. واقترح عليه حمدى أن يدخل كلية الزراعة، فعاد إليه مرحه فجأة وقال:

ـ لقد قضيت فى المدارس حتى الآن تسع سنوات لأهرب من مصير أبى وأشقائى وتريدنى الآن أن أصير مزارعا مثلهم ولكن بشهادة عليا. يفتح الله.

والتحق عبد الغفار بكلية العلوم.

وكنت أرى عبد الغفار من حين لآخر وهو طالب جامعى، ولاحظت أنه أصبح أكثر جدية، وكثيرا ما يتحدث فى السياسة، وهو ما لم يكن يفعله قط عندما كنا فى المدرسة الثانوية. واكتشفت بعد قليل أن لغته تبدلت، وأصبح يستخدم عبارات لا تخطئها الأذن، لقد أصبح شيوعيا.

وتخرج عبد الغفار فى كلية العلوم بعد سنوات الدراسة الأربعة ولم يجد بدا من قبول وظيفة مدرس بالمدارس الثانوية للطبيعة والكيمياء. وقد سخر من ذلك قائلا:

ـ كنت أشاكس المدرسين وأنا تلميذ، ولم يخطر ببالى أننى سأصبح مدرسا وأشرب من الكأس التى كنت أذيقها لأساتذتى!

وكما كان متوقعا، ألقى القبض على عبد الغفار فى أوائل عام ١٩٥٥، وقدم للمحاكمة، وصدر عليه الحكم بالسجن ثلاث سنوات. وقد حاولت، عن طريق بعض الأصدقاء، أن أعرف أخباره فى السجن، فعلمت أنه لم يتقبل ذلك بسهولة، وكان دائما مكتئبا. وقد اختلف مع زملائه فى السجن لأسباب لم أستطع معرفتها وسمعت أنه فصل من الحزب الذى كان ينتمى إليه. وعندما خرج من السجن، كان قد فصل من وظيفته.

ولم تكن لدى عبد الغفار أية موارد يستطيع أن يعيش منها فى القاهرة. لذلك فقد عاد إلى قريته. وعرفت أن والده وأشقاءه لم يحسنوا استقباله. كانوا قد عقدوا عليه وعلى مستقبله الوظيفى آمالا كبارا، فخابت كل هذه الآمال، وأظلم المستقبل أمامه. وبعد بضعة أيام، جمع الأب أولاده بما فيهم عبد الغفار، وقرروا أن الحل الوحيد هو أن يعمل زميلى معهم فى الحقل، إلى أن يقضى الله أمرا كان مكتوبا. لكن عبد الغفار لم يكن راضيا عن ذلك الحل، فطلب من أبيه أن يفرد له غرفة منعزلة فى المنزل يجعل منها قاعة للدروس الخصوصية للطبيعة والكيمياء لتلاميذ القرية والقرى المجاورة. ولفت الأب نظره إلى أن أهل

القرية أصبحوا يخشون الاقتراب منه أو من منزلهم. فهم يفهمون أن يدخل رجل محترم السجن فى قضية ثأر، لكن أن يحكم عليه فى قضية لا يفهمون عنها شيئا، فهذا شيء غير مقبول.

لكن إزاء إصرار عبد الغفار، وافق الأب على مضض أن يترك له غرفة يمارس فيها ما يريد، ولكن بشرط أن يترك كل شيء ويعود للحقل إذا لم ينجح خلال ثلاثة شهور فى إقناع التلاميذ بمتابعة دروسه الخصوصية.

واقترض عبد الغفار من أبيه مبلغا بسيطا من المال، وسافر إلى أقرب مدينة كبيرة، حيث اشترى بعض الأجهزة البسيطة وبعض المواد الكيميائية التى ستساعده فى عمله الجديد.

وبدأ عبد الغفار يقنع التلاميذ الذين يسكنون القرية ويترددون على المدارس القريبة بالالتحاق بحصصه. ومرت الأيام بدون أن ينجح فى ذلك، خاصة وأن أجهزة الأمن كانت تراقبه عن قرب. لذلك قرر أول الأمر أن تكون الدروس مجانية، يمكن لأى أحد، حتى لو لم يكن تلميذا، أن يحضرها.

وفوجئ عبد الغفار بعد أيام، أن القرويين الذين لم يدخلوا الغرفة، لكن كانوا يراقبون ما يفعله من الخارج عبر بابها المفتوح، أخذوا يرددون أنه يمارس السحر.فهو يضع ماء على ماء، فإذا بدخان يتصاعد، والماء يصبح أخضر اللون، وغير ذلك من القصص.

وجاءته امرأة ذات يوم تطلب منه أن يكتب لها حجابا. وعبثا حاول إقناعها أنه كيميائى وليس ساحرا، فقد أخذت تبكى وتتهمه بأنه لا يريد مساعدتها. واضطر عبد الغفار، لكى يتخلص منها أن يكتب لها أى شيء على ورقة لفها بعد ذلك فى شكل حجاب وأعطاه لها.

ومنذ اليوم التالى توافد القرويون ـ ومعظمهم من النسوة ـ على غرفة عبد الغفار يطلبون منه طلبات غريبة، أن «يفك عمل» أو أن «يحنن قلب زوج»، أو غير ذلك. وثار عبد الغفار ثورة عارمة، وانتفض، وأغلق باب الغرفة وواجه الجمع الواقف أمامها وقال لهم بغضب شديد إنه قرر ألا يعمل مدرسا ولا دجالا، وإنما سيعمل فى الحقل مع باقى أفراد أسرته.

وفى اليوم التالى، استدعاه ضابط مباحث النقطة، فارتعد عبد الغفار، خاصة وأنه كان قد نمى إلى علمه أن توترا حادا يسود العلاقات بين الحكومة والشيوعيين، وأن المسائل تسير من أزمة إلى أخرى.

واستقبله ضابط المباحث بترحاب أدهشه، وسأله بألفة أقلقته من جديد عن أحواله. ورد عبد الغفار بعبارات مقتضبة لم يعرها الضابط أى اهتمام، وقال له بدون مقدمات:

ـ نحن نراقبك مراقبة دقيقة، وأنا سعيد أنك لم تقم بأى نشاط سياسى خلال الفترة السابقة، لكنى لا أخفيك أن فكرة إعطاء الدروس الخصوصية خطيرة. فنحن لا نريد أن تكون لك صلة بالتلاميذ والطلبة بصفة خاصة.

ورد عليه عبد الغفار مترددا أنه قرر أن يعمل فى الحقل مع أبيه وأشقائه، ويحاول أن ينسى كل ماضيه. لكن الضابط أصدر بلسانه صوتا يعنى الاعتراض وعدم الموافقة وقال له:

ـ هل من المعقول أن يزرع ويقلع رجل مثقف مثل أى فلاح لا يعرف الفارق بين الألف وكوز الذرة؟ ماذا يقول الناس فى القرية عن الحكومة فى هذه الحالة؟ إنها لا تحترم المثقفين؟

وسأله عبد الغفار وهو فى حيرة من أمره عما يمكن أن يفعله إذن، خاصة وأنه لم يتعلم غير الطبيعة والكيمياء، ولم يرد الضابط على تساؤله، بل قال كمن تذكر فجأة شيئا هاما إنه لم يسأله ماذا يريد أن يشرب. وأجاب عبد الغفار إنه لا يريد أى شىء لكن الضابط طلب من المراسلة كوبين من الشاى، ثم التفت إلى عبد الغفار وهو يضحك. وانتظر صديقنا لحظات، لكن الضابط استمر فى الضحك، واضطر عبد الغفار أن يسأله عما يضحكه، فقال الضابط:

ـ سمعت أن لك كرامات يتحدث عنها أهل القرية، بل والقرى القريبة من قريتكم ياشيخ عبد الغفار!

وابتسم عبد الغفار وقال:

ـ جهلة!

ولم يعلق الضابط فورا، وإنما أخذ يعبث بسلسلة مفاتيح فى يده، ثم قال:

ـ أتدرى ياأستاذ عبد الغفار أن العلم والجهل أشياء نسبية. ثم ما هى الحقيقة فى نظرك؟ أليس إجماع الناس على أنك شيخ ذو كرامات يجعل هذا الأمر حقيقة؟ ألا تقول ماركسيتكم شيئا من هذا القبيل؟

وأجاب عبد الغفار فى حذر قائلا إنه درس العلوم وليس الفلسفة، لذلك فهو لا يستطيع مناقشة هذه الأمور. لكن الضابط قال بلهجة تهديد:

ـ أليست الماركسية التى تعتنقها فلسفة؟ على أية حال أنا لا أريد أن أرغمك على الدخول فى مناقشة، لكننى أقول لك بمنتهى الصراحة إنك، بدلا من أن تكون عدوا لنا، يمكنك أن تصبح صديقا. وصداقتنا فى الظروف الراهنة ستخدمك بصورة لا تتصورها.

ولم يرد عبد الغفار على الضابط، ولم يوجه إليه أى سؤال، فواصل الرجل حديثه:

ـ إنك إذا أصبحت شيخا ذا كرامات، سيأتى الناس إليك من كافة أنحاء المنطقة ويحكون لك عن مشكلاتهم. وإذا ما تعاونت معى، وحكيت لى عما يحدث، وعن نوع المشكلات، فإننا قد نستطيع سويا أن نجد لها حلا. أليس هذا هو ما كنت تسعى إليه عندما أصبحت شيوعيا؟

وتمسك عبد الغفار بالصمت، فاستطرد الضابط قائلا:

ـ على أية حال فكر فى الموضوع، لكن لا تضيع وقتا طويلا، فلا يعلم إلا الله ما تخبئه الأيام المقبلة.

وعلى الرغم من أننى لم أزر عبد الغفار فى قريته كما كنت أريد، إلا أننى عرفت أنه أصبح شيخا ذا كرامات، وأنه لم يلق القبض عليه فى يناير عام ١٩٥٩ مع كل زملائه الشيوعيين.

وتؤكد الأخبار التى تصلنى عن عبد الغفار حتى الآن، أنه لا يزال يمارس الشعوذة، وأنه أصبح من أكبر ملاك الأرض فى منطقته.

عمرو أحمد الساعى

إلى جانب عبد الغفار محمدين يقف عمرو أحمد الساعى بقامته الرياضية الطويلة.

لم يكن عمرو أحمد الساعى من تلاميذ المدرسة القدامى، بل جاء إلينا فى بداية العام الذى التقطت فيه الصورة قادما من مدرسة طنطا الثانوية. وكان والده أحمد بك الساعى عضوا بمجلس الشيوخ. وقد أخبرنا أن والده سعدى، بينما خاله وفدى، وأن الخلافات فى عائلتهم بسبب هذين الانتماءين الحزبيين شديدة جدا. أما هو فكان سعديا مثل أبيه. وكانت هذه هى أول مرة فى حياتى أرى شخصا ينتمى للحزب السعدى، فقد كان الوفديون أغلبية ساحقة فى كل مكان، وخاصة بين التلاميذ والطلبة.

وكان عمرو ضخم الجثة، جهورى الصوت، يبدو أكبر من عمره الحقيقى. كما كان رياضيا بارزا، فقد كان يلعب الملاكمة فى أحد نوادى طنطا. كذلك كان من التلاميذ

القلائل الذين يدخنون بصورة منتظمة، يحتفظ فى جيبه دائما بعلبة سجائر. وكان على الرغم من فظاظته الظاهرة، حلو المعشر، يخلص لمن يصادق، ويساعده بكل الوسائل إذا احتاج لمساعدة.

وكان المدرسون يخشونه ويتحاشونه، فقد عرف أنه فصل من مدرسة طنطا الثانوية فى العام الدراسى السابق لأنه ضرب أحد المدرسين ضربا مبرحا، ولولا أن أباه عضو فى مجلس الشيوخ لكان قد فصل نهائيا من المدارس الأميرية (كان هذا هو الاسم الذى يطلق وقتها على المدارس الحكومية). واكتفت وزارة المعارف بفصله حتى نهاية العام الدراسى، وطلبت من والده نقله إلى مدرسة أخرى.

ولست أدرى السبب فى أننى كنت أحد الذين اختارهم عمرو ليتقرب منهم فى فصلنا. المهم أننا صرنا على علاقة طيبة جداً. وقد أصر ذات يوم أن يدعونى مع زميلنا فوزى الشرقاوى لمنزل بعض أصدقائه من غير تلاميذ مدرستنا، كان قد عرفهم أثناء دراسته فى طنطا واستقروا فى القاهرة قبله بعامين. والتقينا فى مكان حدده لنا أنا وفوزى، وذهبنا سويا إلى منزل فى الروضة، فوجدت فى حجرة الاستقبال جمعا من أكثر من ثمانية شبان، بعضهم يكبرنا بعدة أعوام. وبعد أن قدمنا إليهم وجلسنا، خرج واحد منهم من الغرفة، ثم عاد بعد قليل يحمل «شيشة» ومنقداً به جمرات من الفحم. وأخرج شاب ثان من جيبه لفافة من الورق المفضض، وبدا يفتحها بحرص شديد. وعلى الرغم من أننى لم أكن قد رأيت الحشيش بعد أو جلست فى مجلس من هذا النوع، فقد أدركت فورا مما كنت قد سمعته من بعض أصدقائى أن هؤلاء الشبان يتأهبون لنصب جلسة لتدخين هذا المخدر. وأصابنى الذعر، فملت على عمرو سائلا إياه إن كانت تلك المادة حشيشاً، فضحك ورد علىّ بالإيجاب، وطلب منى ألا أخشى شيئا، وأن أمتنع عن التدخين معهم إذا كنت خائفا. أما فوزى الشرقاوى فلم يبد عليه أى شىء.

وانتابنى إحساس بالقلق، لكننى شعرت بنوع من الحرج إذ أننى لم أكن أريد أن أبدو غرا أمام كل هؤلاء الشبان، بالإضافة إلى أن فضولا شديدا استولى على، وقررت أن أخوض التجربة، فأكدت لعمرو أننى لست خائفا وسأدخن معهم. وقد أدرك هو، حتى قبل أن أوجه

إليه أى سؤال، أن هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها الحشيش. لذلك أخذ يرشدنى كيف أدخن الشيشة، وكيف «أسحب النفس». وقد حرص على ألا أدخن كثيرا حتى لا أصبح فى حالة سيئة. أما فوزى، فيبدو أنه كان يستمع لما كان عمرو يقوله لى وينفذه بحذافيره، بدون أن يظهر وكأنه لا يعرف شيئا. وامتلأ هواء الغرفة بالدخان، وأخذ الجالسون يتبادلون النكات والقفشات. وقد حرص الجميع على ألا يجعلوننى أشعر أننى غريب بينهم، أو مبتدئ فى تدخين الحشيش. وعلى الرغم من ذلك، فقد رفضت دعوة عمرو بمرافقته إلى مثل تلك الجلسات بعد ذلك، وقد أحسست أننى أشبعت فضولى. ومع ذلك ظلت علاقتى بعمرو طيبة.

وقد حصلنا على شهادة التوجيهية سويا فى العام التالى، ودخل عمرو كلية الحقوق مثل أبناء رجال السياسة، لكنه لم يحضر محاضرة واحدة طوال العام الدراسى، بل كان يجلس فى «بوفيه» الكلية يوميا منذ الصباح وحتى الساعة الثانية بعد الظهر مع الطلبة الذين كانت السياسة عندهم أهم من الدراسة. ولم يدخل عمرو امتحان نهاية العام الدراسى، بل ولم يقدم اعتذارا، وفصل من كلية الحقوق فالتحق بكلية التجارة، لكن حظه فيها لم يكن أفضل، وتوقف عن الدراسة نهائيا.

وقد طبقت على والده قوانين الإصلاح الزراعى. ولم يتحمل الأب صدمة ضياع مستقبله السياسى وفقدان جزء كبير من الأراضى التى كان يملكها، فتوفى بعد عام واحد من صدور قانون الإصلاح الزراعى الأول. وهكذا ورث عمرو عن أبيه مائة فدان، بينما اقتسمت شقيقتاه مائة فدان أخرى. وقرر عمرو أن يهتم بأرضه وأرض شقيقتيه ويزرعها بنفسه. لكنه ترك كل شىء فى العام التالى وقام بتأجير الأرض، ومارس حياة أصحاب الأملاك العابثين فى القاهرة والإسكندرية.

كان يستيقظ قبيل الغروب بقليل، فيستحم ويرتدى ثيابه، ثم يمضى إلى أحد البارات حيث يلتقى ببعض أصدقائه يحتسون كئوس الويسكى حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، ثم يمضون إلى مطعم فاخر حيث يتناولون طعام العشاء مع عدد آخر من كئوس الويسكى. وفى حوالى الواحدة صباحاً ينتقلون إلى أحد كباريهات شارع الهرم حيث يواصلون الشرب

حتى شروق الشمس. وطوال السهرة يدخنون السجائر المحشوة بالحشيش. وكانت له أيضا مغامرات نسائية مع عاهرات يدفع لهن بسخاء.

ولم يعد إيراده يكفى لمثل هذه الحياة بالطبع، فبدأ فى طلب المساعدات من شقيقتيه. لكن شقيقتيه توقفتا عن تزويده بأموال كان يعدهما بردها بدون أن يفى بوعوده، فتحول إلى أصدقائه. وعندما سئم أصدقاؤه زيادة مطالبه، كفوا أيديهم عنه، فاضطر إلى بيع أرضه بالتدريج، إلى أن أصبح لا يملك شيئا. وتردت أحواله تماما عندما قاطعته شقيقتاه، وأخذ يجوب الشوارع بحثا عن شخص ربما يستطيع أن يستدين منه أى مبلغ من المال.

وقرأت فى الصحف عام ١٩٥٩ أن عمرو أحمد الساعى قتل تحت عجلات سيارة. وفى اليوم التالى أكد شهود العيان أن السائق لم يرتكب أى خطأ، وأن عمرو هو الذى ألقى بنفسه عامدا تحت السيارة.

محمد محمد محمد حمدى عبد الغنى

بجانب عمرو أحمد الساعى يقف محمد محمد محمد حمدى عبد الغنى.

لم يكن محمد محمد محمد حمدى عبد الغنى من أصدقائى فى السنة الأولى، بل مجرد زميل فصل. لكن تصادف أن جلس إلى جانبى فى السنة الثانية، ومن هنا بدأت أواصر الصداقة تربط بيننا.

وقد لاحظت أن حمدى ـ كما كنا نسميه ـ نحن أصدقاءه ـ يحمل معه دائما كتبا غير كتب المدرسة، وفى بعض الحصص التى لا تهمه، يضع الكتاب على ركبتيه تحت التختة ويقرأ غير عابئ بما يقوله المدرس. وكنت أحيانا أنظر إلى الكتب التى يقرؤها، فإذا هى فى الغالب روايات. كان بعضها من الروايات البوليسية التى كان يكتب على ترجمتها العربية آنذاك: «بطلها اللص الظريف أرسين لوبين»، (وإن عرفت فيما بعد أن روايات أرسين

لوبين الأصلية التى ألفها موريس لوبلان لا تتجاوز الخمس عشرة رواية فى حين أن السوق المصرية كان بها وقتها ما لا يقل على ثلاثمائة رواية كتب على غلافها أن بطلها هو «اللص الظريف». والسبب فى ذلك هو أن روايات أرسين لوبين الحقيقية حققت نجاحا كبيرا، فاستمر المترجمون يضعون اسم أرسين لوبين على أية رواية يترجمونها). صحيح إذن أن بعض الروايات التى كان حمدى يقرؤها كانت من الروايات البوليسية، لكن معظم ما رأيته معه كان من الأدب العالمى المترجم، مثل مسرحيات برنارد شو، وروايات تشارلز ديكنز، ودستويفسكى وتورجنيف وتولستوى وتشيخوف وموباسان وفيكتور هوجو وغيرهم. وكان كلما أعجبته إحدى الروايات أعارها لى لكى أقرأها أنا الآخر. وأخذت أنا بدورى أعيره الكتب التى كنت أحبها.

ولم يكن حمدى مجرد قارئ عادى. فقد كان كثيرا ما يجد متعة ـ ونحن بعد فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمرنا ـ فى مناقشة شخصيات هذه الروايات وأحداثها معى. كذلك كانت هذه الروايات تصقل أسلوبه وتنمى خياله. لذلك كان مدرسو اللغة العربية فى الفصول المختلفة يبهرون بموضوعات الإنشاء التى يكتبها، وكثيرا ما كانوا يقرءونها للتلاميذ فى السنوات الأكبر منا. وعندما قرر كامل بك الحديدى أن يصدر مجلة للمدرسة، كان حمدى فى هيئة تحريرها. وكان جميع من فى المدرسة يتوقعون له مستقبلا أدبيا كبيرا.

لكن حمدى، على الرغم من اهتمامه بالقراءة، لم يكن ذلك التلميذ المنطوى على رواياته. فقد كان إلى جانب ذلك شديد النشاط. كان يريد دائما أن يتعلم ألوانا جديدة من الرياضة البدنية. فتارة يحاول تعلم الملاكمة أو المصارعة، وتارة يتحمس لمشروع فؤاد أفندى ويتعلم العقلة والمتوازيين وتارة أخرى يرفع الأثقال، أو يتردد بانتظام على حمام السباحة فى نادى المعلمين. وبسبب هذا النشاط، كانت علاقاته وثيقة بعدد كبير من تلاميذ المدرسة. وكان يصر على أن أشاركه اهتماماته وصداقاته الأخرى. وكان يعدنى صديقه الأقرب.

وقد أدهشنى أن حمدى لم يكن يتحدث قط عن أهله أو منزله. كان التلاميذ فى العادة يحكون نوادر حدثت لهم مع آبائهم، أو يتحدثون عن أشقائهم. أما حمدى فلم يحدثنى

عن أى شيء يخص عائلته. عندما سألته مرة إذا كان له أشقاء أو شقيقات، أجاب بالنفى المقتضب، ثم تحدث فورا فى موضوع آخر. وأذكر مرة أخرى أننا كنا نسخر من اسمه لتكرار محمد ثلاث مرات، فابتكر هو طريقة لإسكاتنا، إذ كان يقول عندما ينطق باسمه «محمد أس ٣ حمدى عبد الغنى». لكنه أسر لى بعد فترة أن جد أبيه أقسم أن يسمى أول مولود جديد يرزق به محمدا، بعد أن توفى له ثلاثة أولاد فى سن الطفولة، كما أقسم أن يكون اسم أول ذكر يرزق به ابنه الأول هو محمد وهكذا. وقال لى إن أباه هو شخصيا أوصاه أن يسمى ابنه الأول محمدا نزولا على وصية جده.

وكان حمدى كثيرا ما يزورنى فى منزلى، وتعرف على جميع أفراد أسرتى. وكان والداى يحبانه لأنه كان رقيقا مهذبا، لكنه لم يكن يدعونى إلى منزله. لذلك فقد دهشت عندما قال لى ذات يوم:

ـ إذا لم يكن لديك شيء غدا، أرجو أن تمر على فى منزلى.

ولأول مرة عرفت أنه يقطن شارع مسرة بشبرا.

وعندما دخلت منزله فى اليوم التالى، وجدت شقة كبيرة، لكنها غير منظمة كما لفت نظرى أن الحائط فى حجرة الجلوس كان مزينا بصور مجموعات من الرجال والنساء الواقفين أو الجالسين سويا ومنظرهم غير مألوف، وبآلات موسيقية متعددة من أعواد وطبول قديمة وغيرها. وعندما لاحظ حمدى اتجاه نظراتى، قال لى إن أباه عازف عود وكمان فى فرقة موسيقية تعمل فى الملاهى الليلية، وأنه قد طلق أمه ـ التى كانت تعمل راقصة فى فرقته ـ منذ زمن طويل جدا بسبب خلاف لا يعرف سببه، حتى أنه ـ أى حمدى ـ لا يكاد يذكرها. فهى لم تسأل عنه منذ طلاقها من أبيه، وأبوه لا يحدثه عنها مطلقا. وحكى لى حمدى كل ذلك بدون أن أسأله عن شيء بينما هو يعد لى شايا أشربه، ببساطة شديدة وبشيء من السخرية الخالية من المرارة، وكأنه ينفس عن شيء كان بداخله. وبعد أن اختتم روايته سألنى إن كان ذلك سيغير شيئا من علاقتنا، فأجبته بأنه صديقى لشخصه وما لمسته فيه، وليس لحسبه أو نسبه. ولم نتحدث فى ذلك الموضوع بعد هذا اليوم.

وتوفى والد حمدى وهو فى الأيام الأولى من دراسته الجامعية. فاضطر إلى ترك الدراسة والعمل ليعول نفسه. ولست أدرى كيف التحق بمحكمة مصر كناسخ. فلم تكن المحاكم

المصرية تعترف آنذاك بالآلة الكاتبة، بل كانت مسودات أوراق القضايا وأحكام القضاة تنسخ باليد. وكان هذا هو عمل حمدى فى بدروم المحكمة.

وقد تعودت، سواء وأنا طالب فى الجامعة أو بعد أن عملت، أن أمر على حمدى فى عمله كلما اشتقت إليه، إذ كان هو يرفض ـ بدون أن يعترف بذلك صراحة ـ أن يتصل بى. وكثيرا ما كنت أحاول أن أقنعه بأنه يستطيع استكمال دراسته بينما هو يعمل، لكنه كان يهز كتفيه ويقول بسخرية:

ـ إن برأسى معارف أكبر من تلك التى فى رأس أى حامل لليسانس، فلماذا أرهق نفسى؟

وتزوج حمدى بعد ذلك، وحاولت أن أقنعه بأن حصوله على شهادة جامعية سيحسن مستواه المادى، وأنه يجب أن يفعل ذلك من أجل أولاده فى المستقبل، لكنه كان يجد دائما حجة لرفض فكرة استكمال الدراسة. لذلك حاولت أن أقنعه بأن يكتب مقالات أو قصصا أو روايات ويرسلها إلى الصحف، لكنه كان يرفض كل شىء.ثم رزق بابنه الأول، الذى أسماه محمدا، ورزق بعده بثلاثة أطفال آخرين. ولم يعد مرتبه يكفيه وإذا به يقول لى فى أحد الأيام إنه اتفق مع أحد الأندية الصغيرة على تدريب فريق الملاكمة نظير مكافأة شهرية.

واستمر حمدى يدرب ذلك النادى وغيره لبضع سنوات.

وحدث أن منعتنى بعض المشاغل من زيارة حمدى لعدة شهور. وعندما سمح لى وقتى وذهبت أخيرا إلى بدروم المحكمة، استقبلنى زملاء حمدى بوجوه حزينة، وأخبرونى أن حمدى قد توفى منذ شهرين. وعندما قلت لهم ذاهلا إنه لم يبلغ الثالثة والأربعين من عمره، أجابوا بأن الأعمار بيد الله. وبإصرار، وكأننى أرفض تصديق النبأ قلت إننى لم أقرأ نعيه فى الصحف، ورد أحد زملائه بابتسامة فاترة إنهم تبرعوا لزوجته حتى تستطيع إقامة شعائر دفنه، فأنى لها بنشر نعيه فى الصحف.

وتوجهت إلى منزل حمدى، لكننى وجدت مستأجرين جددا أكدوا لى أنهم لا يعرفون أين ذهبت أرملة حمدى وأولاده بعد أن تركوا هذه الشقة.

فاروق عباس فرج

عن يمين محمد حمدى رأيت نفسى منذ حوالى أربعين عاما. وقد تضاربت أحاسيسى، فقد شعرت بمدى التغير الذى حدث لى، وأحسست بالدهشة لسرعة مرور الزمن، لكننى أعتقد أننى لا أشعر بالندم على أى شىء فعلته طوال هذه السنوات، وربما كان ذلك أفضل ما يمكن أن يشعر به إنسان فى مثل عمرى. ويقف عن يمينى فاروق عباس فرج بجسده الضخم المكتظ وقامته الطويلة.

كان فاروق عباس فرج نوبيا. وكان أكبرنا عمرا وأضخمنا جسما. وقد وصل إلى السنة الرابعة بعد جهد كبير، إذ قضى فى كل عام دراسى سنتين على الأقل، لذلك فإنه كان قد تعدى الحادية والعشرين من عمره يوم التقاط هذه الصورة، بينما لم نكن نحن قد تجاوزنا السادسة أو السابعة عشرة. كما كان طويلا ممتلئ الجسم. وكان يعاملنا معاملة أبوية يواسى من يحتاج إلى المواساة، ويأخذ حق من له حق. لكنه لم يكن يأخذ حقا بالقوة، فهو لم

يكن عنيفا. ولكن لأن الجميع كانوا يخشونه ويحترمونه لضخامة حجمه وكبر سنه، فإن مجرد تدخله فى أية مشكلة كان يكفى لحسمها.

ولم يكن تأخره فى الدراسة يؤثر فى معنوياته، بل كان يسخر من الدراسة ذاتها ويقول إنه لا يحبها، وأن أباه هو الذى يرغمه على مواصلتها. وكان يفخر أن أباه يعمل سائقا لدى إحدى أميرات الأسرة المالكة. والحق أننا لم نكن قد سمعنا من قبل باسم تلك الأميرة، إذ يبدو أنها لم تكن من شقيقات الملك أو أبناء عمومته المباشرات، فقد كانت معظم أسماء معظمهن معروفة. وكان كثيرا ما يحكى عن الأميرة، وكيف تعامل أباه باحترام وتقدير، ويؤكد أن أباه يعرف أسرار كل الأسرة المالكة، وإن كان هو يرفض أن يحدثنا فى هذا الموضوع، لأن أسرار العائلات يجب ألا تحكى على الملأ، فما بالك بأسرار العائلة المالكة. كذلك كان يؤكد بفخر فى كل مناسبة أن الأميرة هى التى اختارت له اسم فاروق ـ أى اسم الملك ـ عند ولادته.

وبينما كنا نتحدث فى أحد الأيام أنا وحمدى وإدوار مع فاروق، قال لنا إن جده الأكبر هو الأمير مراد، المملوك الوحيد الذى نجا من مذبحة القلعة عندما قفز بفرسه من فوق السور بمجرد أن بدأ جنود محمد على فى إطلاق النار، فقتل الفرس ولاذ هو بالفرار إلى بلاد النوبة. وعندما سخرنا منه وقال له حمدى إن لون بشرته لا يمت للمماليك بصلة، نظر إلينا بإزدراء وقال إنه مخطئ إذ يتحدث مع مثلنا، وانصرف غاضبا. ولكنه عاد يتحدث معنا بصورة عادية فى اليوم التالى، وقد نسى تماما غضبه علينا فى اليوم السابق.

وكنت أحد أصفياء فاروق، إذ كان يعدنى هادئا رزينا. لذلك فكثيرا ما جلسنا نتحدث سويا فى فترات الفسحة. وكان يقول لى دائما إنه يريد أن يعمل سائقا هو الآخر بأسرع وقت ممكن، فهو يجيد قيادة السيارات، ويريد أن يكسب ويعيش حياته، بدلا من حياة التلمذة والاعتماد على أبيه. وعبثا حاولنا، أنا وحمدى أن نجعله يقرأ. وكان يسخر منا ويقول:

ـ أنتما تعيشان فى عالم الخيال، وهذا لن يفيدكما شيئا عندما تنزلان بمعترك الحياة. أما أنا فأفهم الدنيا الحقيقية، لا دنيا الخيال..

وجاءنى فاروق ذات يوم، وجذبنى من ذراعى وانتحى بى جانبا فى فناء المدرسة وقال لى:

ـ نحن فى حاجة إلى نقود لكى نستطيع أن نلهو كما يحلو لنا. ولن يعطينا آباؤنا ما نحتاجه لكى نلهو كما يجب. لذلك فقد جاءتنى فكرة رائعة.

ولم يدهشنى حديثه، فكثيرا ما كان يشكو من قلة النقود التى يحتكم عليها، لأنه يدخن السجائر، بل والحشيش أحيانا، ويذهب إلى حى العاهرات أحيانا أخرى. لكنه أثار فضولى، فسألته:

ـ ما هى؟

فخفض من صوته، وقرب فمه من أذنى وقال:

ـ أعرف منزلا فى جاردن سيتى يدار للعب القمار. فإذا ما هاجمنا هذا المنزل أثناء لعب القمار، وأخذنا جميع الأموال التى فى جيوب اللاعبين وانصرفنا، فإنهم لن يجرءوا على إبلاغ الشرطة.

وضحكت، فقد اعتبرت الأمر فكاهة، لكنه غضب وقال:

ـ لماذا تضحك. لقد فكرت فى كل شىء.

وسألته:

ـ قل لى أولا كيف عرفت أن هذا المنزل يدار للعب القمار؟

لكنه رفض الإجابة على سؤالى بوضوح، وإن قال شيئا فهمت منه أنه عرف عنوانه من أبيه. وبدأت أشعر أنه يفكر فى الموضوع بصورة جدية، فمضيت أسأله:

ـ أتظن أنك ستدخل وتقول لأصحاب المنزل ببساطة «مساء الخير، أرجو إعطائى نقودكم» لكى يقدموا لك ما تريد ثم يودعونك حتى الباب ويتمنون لك السلامة؟

وابتسم عندما بدأت أناقشه، إذ ظن أننى أريد أن أطمئن إلى خطته، وقال بفخر:

ـ أولا لن أكون وحدى، فسنكون خمسة. أنا وأنت وحمدى وجابر وصلاح ـ التلميذ بالسنة الخامسة أدبى ـ الذى سيكون فى سيارة والده ينتظرنا على مسافة غير بعيدة. أما نحن الأربعة، فسنكون مسلحين بمسدسات ووجوهنا مغطاة بحيث لا يتعرف علينا أحد. وعندما ندخل، سأقف أنا عند باب الغرفة التى يلعبون فيها القمار لكى أغطيكم ولكى لا يخرج أحد منها، بينما تجمعون أنتم النقود. وبعد خروجكم أنتم من الغرفة، سأغلق بابها بالمفتاح من الخارج قبل انصرافنا حتى لا يطاردنا أحد. لكننى واثق أن خوفهم من الفضيحة سيجعلهم لا يتحركون. فجميعهم من علية القوم. هم يستطيعون بالطبع إنهاء المسألة وديا مع الشرطة إذا عرف أنهم يلعبون القمار، فليس هذا هو مايخافون منه، لكن إذا عرف أحد صحفيى المعارضة هذا النبأ، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الفضيحة.

وأخذ فاروق يحاول إقناعى بأن الخطة كما رسمها لا تمثل أى خطر. وحاولت بدورى أن أجعله يدرك أن هذا الأسلوب، بالإضافة إلى أنه سرقة، إلا أنه من ناحية أخرى لن يحل المشكلة. فبعد إنفاق النقود ـ وهذا لن يستغرق أكثر من بضعة أيام ـ سيعود مفلسا مرة أخرى وفى حاجة إلى أموال أخرى. فهل يكرر المحاولة؟

لم يقتنع فاروق بمنطقى بالطبع، وجعلنى أقسم ألا أقول شيئا لأى أحد. وأجبته بأننى أرجو أن يعدل عن مشروعه، لكننى لن أفتح فمى بكلمة على أية حال. كما نصحته ألا يفاتح حمدى فيه لأننى واثق أنه لن يوافق على الاشتراك فى هذه العملية.

وبعد حوالى أسبوع، جاءنى فاروق ساخطا، وقال لى إن جابر وصلاح وآخرين ـ لم يفصح لى عن اسميهما ـ وافقوا على مشاركته فى العملية، وأنه أحضر المسدسات بالفعل، وضربوا موعدا ذهب هو إليه، فإذا بالآخرين جميعا يخلفون الموعد. ووصفهم بالجبناء. وغضب مرة أخرى عندما انفجرت ضاحكا. والحق أننى سررت أن فاروق لم ينفذ عمليته الخرقاء، التى كنت أشك كثيرا فى نجاحها.

ولم يحصل فاروق على أية شهادة، بل ترك التعليم بعد أن فشل أربع مرات فى الوصول إلى السنة الخامسة. ومرت سنوات طويلة فقدت خلالها كل أثر له، إلى أن دخل على مكتبى منذ حوالى ثلاثة أعوام. كان يرتدى زى سائقى الأتوبيس. وقال لى إنه عمل سائقا

فترة من الوقت بعد أن ترك الدراسة، ثم عمل بالتجارة ـ ولم يقل لى كيف حدث هذا الانتقال ـ فربح منها، وزادت أرباحه حتى أصبح من الأثرياء، وكانت عنده سيارة خاصة أمريكية، لكنه لم يتزوج قط. واشترى مرة بضائع اختزنها متوقعا أن يرتفع سعرها فيجنى منها أرباحا طائلة. لكن الحكومة قررت أن تحتكر استيراد هذه السلعة وبيعها بأسعار مدعمة. وهكذا أصبح سعرها فى السوق أقل من السعر الذى اشتراها به، وهو لم يسدد بعد ثمنها، فخسر كل ما كان يملكه. ولم يجد خيرا من البحث عن وظيفة سائق. لكن عدد ملاك السيارات الخاصة بعد سنوات من الثورة كان أقل بكثير من عدد السائقين الذين يبحثون عن عمل. لذلك اضطر أن يعمل فى شركة النقل العام. وبعد عدة سنوات، بدأ نظره يضعف، وهو يخشى الآن أن تكتشف الشركة ذلك فى أول فحص طبى. وأكد لى أنه كثيرا ما بحث عنى لكنه لم يعثر على عنوانى إلا مصادفة منذ أيام. وطلب منى أن أقرضه مبلغا كبيرا من المال. وأجبته أن هذا المبلغ ليس معى، وعرضت عليه مبلغا معقولا، قبله على الفور.

وعندما سألته عن عنوانه قال ساخرا:

ـ إن منزل سائق سيارة نقل عام ليس مكانا ملائما للزيارة.

وأصر على عدم إعطائى عنوانه، لكنه وعدنى بزيارتى من حين لآخر. لكن هذه الزيارة كانت الأولى والأخيرة. فقد روعت بعدها بحوالى شهرين بخبر فى الصفحات الأولى للصحف عن أتوبيس انحرف وسقط فى النيل بسبب خطأ السائق، وأن عددا كبيرا من الركاب لقى مصرعه غرقا فى النهر. وأخذت أقرأ تفصيلات الحادث إلى أن وصلت إلى قائمة الضحايا. وعلى رأس القائمة كان اسم سائق الأتوبيس، فاروق عباس فرج.

فـوزى الشرقـاوى

فى أقصى يمين الصورة، وإلى جانب فاروق عباس فرج، كان فوزى الشرقاوى يطل بقامته الفارهة ونظرته المباشرة البشوشة.

كان فوزى الشرقاوى طويل القامة، عريض المنكبين، رياضيا. وكان أيضا جهورى الصوت، مندفعا فى كل تصرفاته، جريئا فى أفكاره. وكان ينتمى لأسرة اشتهرت ليس بالثروة، وإنما بأن معظم أفرادها متعلمون، يمارسون الأعمال الحرة غالبا، فمنهم الأطباء والمحامون والمهندسون. وكان فوزى يفخر بأن أسرته ليست ثرية بأموالها، وإنما بأبنائها.

وكان فوزى ـ على الرغم من أنه كثيرا ما كان يبدى آراءه بصراحة تحرج محدثه ـ محبوبا من الجميع تقريبا، أساتذة وتلاميذ. وقد ارتبط بصلة صداقة مع عمرو أحمد الساعى

لميولهما الرياضية المشتركة، خاصة الملاكمة. لكنه صادق أيضا محمد حمدى عبد الغنى وإدوار وجيه سعد، نظرا لحبهما للقراءة. فقد كان هو الآخر قارئا ممتازا.

وعلى الرغم من ذلك، فقد ذهب معنا، عمرو وأنا، عندما اصطحبنا عمرو إلى جلسة الحشيش. لكنى أدركت أثناء الجلسة أنه ليس من المداومين على التردد عليها.

وكان فوزى يقول منذ كنا فى السنة الأولى، إنه ينوى دخول الكلية الحربية. وأخبرنا مرة أن أسرته لن تعارض اختياره، وإن كانت غير متحمسة له. فليس فى أسرته ضابط واحد. وعندما قامت ثورة يوليو، وكنا فى الأجازة الصيفية، كان فوزى متحمسا جدا لها، وأعرب عن سعادته لقيام الجيش بدوره الوطنى.

وقد حقق فوزى رغبته، والتحق بالكلية الحربية. وساعدته ميوله الرياضية وثقافته على أن يبرز خلال الدراسة. وعلى الرغم من حماسته للثورة، فلم يكن يخوض فى الأمور السياسية كثيرا.

وبعد تخرجه، ألحق بسلاح الفرسان (الذى تغير اسمه بعد ذلك إلى سلاح المدرعات). وقد أرسلت كتيبته إلى سيناء أيام العدوان الثلاثى، لكن أوامر الانسحاب صدرت لها قبل أن تشتبك فى القتال. وقد أخبرنى بعد ذلك أن كتيبته كانت من الكتائب التى انسحبت بانتظام، لأن قائدها كان عسكريا حقيقيا.

وحاول فوزى أن يدخل بور سعيد أثناء احتلالها للانضام إلى المقاومة، لكن قيادته رفضت أن تصرح له بذلك، لأنه لم يكن من أبناء المدينة ولا يعرف عنها شيئا يذكر. وكانت أزمة كادت أن تدفعه إلى ترك الجيش، لولا أن القتال توقف بقرار من الأمم المتحدة بعد أيام قليلة.

وشعر فوزى ـ كما قال لنا ـ بخيبة أمل لعدم الاشتباك مع العدو. لكنه أكد أن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد، وأن المعركة آتية، لا ريب فى ذلك. كما شعرنا من حديثه عن قائد الكتيبة أنه يكن له تقديرا كبيرا، وأن الرجل ترك فى نفسه أثرا لا ينسى.

وبمجرد جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن بور سعيد، تطوع فوزى فى قوات الصاعقة وهو بعد برتبة ملازم أول. واختفى عن الأنظار تقريبا لمدة عامين. وعندما رأيناه وهو

نقيب، كانت الحماسة تملؤه وهو يحدثنا عن كيفية تدريبهم، وعن بعض العمليات التى قامت بها قوات الصاعقة فى سيناء قبل جلاء إسرائيل عنها. لكنه كان يرفض رفضا قاطعا أن يتحدث عن دوره هو شخصيا فى هذه العمليات. وعندما نال نوط الشجاعة، كان يبدو محرجا عندما هنأناه به، وقال إن أية عملية تعتمد على المجموعة المشتركة فيها كلها، وليس على فرد واحد فيها.

وعندما رقى فوزى بعد بضع سنوات إلى رتبة الرائد، أرسل فى بعثة إلى الاتحاد السوفيتى، فتعلم اللغة الروسية إلى جانب فنون القتال الجديدة التى رفض أن يحدثنا عنها.

وقد شارك فوزى فى القتال فى اليمن دفاعا عن الجمهورية الشابة ضد القوى التى كانت تريد ـ كما قال لنا ـ إبقاء ذلك البلد فى حالة التخلف الشديدة التى فرضت عليه قبل قيام الثورة. وحدثنا فوزى كثيرا عن أحوال اليمن البائسة أثناء حكم أسرة الإمام البدر، وعن الشباب اليمنى المثقف الذى كان يضع كل آماله فى الشقيقة الكبرى مصر، التى كانوا يقولون إنها تقوم بدورها العربى المقدر لها أن تلعبه.

وعندما نشبت الحرب عام ١٩٦٧، توجهت الكتيبة التى كان فوزى يقودها إلى سيناء، واشتركت فى معركة سريعة جدا مع القوات الإسرائيلية، لكن أوامر الانسحاب صدرت مرة أخرى. وقد قال لى وقتها صديق عزيز كان يعمل مراسلا حربيا إنه سمع أن فوزى كان يصرخ ويريد أن يرفض تنفيذ الانسحاب، وأنه كاد أن يقدم للمحاكمة العسكرية بسبب الألفاظ التى استخدمها فى مخاطبة قائد القطاع الذى أصدر له أمر الانسحاب. وطلب فوزى إجازة، وظل فى منزله أربعة أيام لا يخرج، ويرفض توجيه الحديث حتى لزوجته وأولاده. لكنه بمجرد أن سمع أبناء معركة رأس العش، أسرع إلى وحدته وهو ممتلئ حماسة.

كذلك حكى لى صديقى المراسل الحربى ـ الذى لم يكن من تلاميذ مدرستنا ـ أن فوزى كان من أنشط العناصر فى حرب الاستنزاف، التى وصفها العسكريون الإسرائيليون بأنها أطول حرب خاضتها إسرائيل وأقساها، وأنه كان يقوم بالكثير من العمليات الانتحارية بشجاعة كانت كل القوات المسلحة تتحدث عنها فيما تتحدث عنه من ألوان الإقدام

والبطولة التى تميز بها الكثيرون من أبناء الجيش المصرى. وحصل فوزى على وسام جديد.

وجاءت أخيرا الفرصة الحقيقية لفوزى يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣. والحقيقة أن الحرب بدأت بالنسبة لفوزى قبل ذلك بثلاثة أيام. كان فى مهمة خلف خط بارليف مع مجموعة من زملائه. ولم يقل له أحد إن الحرب ستنشب بعد ثلاثة أيام. لكنه هو أدرك ذلك من طبيعة الأوامر التى صدرت له بحسه العسكرى المرهف. وأدى مهمته كأحسن ما يكون، وظل خلف خطوط العدو إلى نهاية الحرب، حتى أنه منح وسام نجمة سيناء بعد انتهائها، ورقى استثنائيا لرتبة العقيد.

وعندما زار السادات إسرائيل، أصيب فوزى ـ الذى كان عميدا قديما على وشك الترقى إلى رتبة اللواء ـ بالذهول. لكنه لم يتردد أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأرسل استقالته. وعندما استدعاه اللواء قائد فرقته وسأله عن سبب ذلك، أجاب قائلا:

ـ إذا كانت الحرب الماضية هى آخر الحروب، كما يبدو ياسيادة اللواء، فلست أرى داعيا لبقائى فى الجيش.

وقال له اللواء إن هذا كلام غريب، فالقوات المسلحة باقية للدفاع عن مصر وأرضها، أجاب قائلا:

ـ إن هذا موقف شخصى منى، فأنا أعرف حق المعرفة أن الجيش باق ودوره هام جدا، لكن سنى ورتبتى لن يسمحا لى بالمشاركة فى أى قتال جديد، وأنا لا أستطيع أن أتحمل ذلك.

ولما اقترح عليه اللواء أن ينتظر على الأقل حتى يرقى لرتبة اللواء، أجاب قائلا:

ـ أنا لم أكن يوما مرتزقا أنتظر لأحصل على بضعة جنيهات إضافية.

وعندما سألته زوجته ـ التى أيدت قراره بحرارة ـ دهش هو نفسه لها، ماذا ينوى أن يفعل وهو لم يكمل بعد الخامسة والأربعين من عمره، أجاب ببساطة:

ـ لست أدرى!

وأعمل هو وزوجته التفكير، وبعد فترة قرر أن يطلب من الحكومة منحه أرضا بورا لاستصلاحها وزراعتها. ولم يكن لديه أية أموال باستثناء معاشه. فباعت زوجته كل حليها، واقترض من شقيقه الطبيب مبلغا من المال، واشترى الآلات الزراعية التى يحتاجها، بدون أن يأخذ قرضا من البنك، كما اقترحوا عليه. وأخذ يعمل فى أرضه بهمة كبيرة، هو وزوجته مع بعض الأجراء. وقد احتاج للاتصال بوزارة الزراعة لطلب معونتها الفنية فى بعض الأمور، فاقترحت عليه الوزارة الاستعانة بخبير إسرائيلى. وثار فوزى، وأرغى وأزبد، وأخذ يقول لهم إنه قضى عمره كله يحارب إسرائيل ويريدون منه الآن أن يتعاون معها!؟ وعندما أثاروا أمامه «كفاءة الخبراء الإسرائيليين» صاح فيهم قائلا إن شعب مصر، الذى علم شعوب العالم كله فنون الزراعة، أصبح فى حاجة الآن لاستيراد خبراء فى الزراعة؟

وكنت أزوره من حين لآخر فى مزرعته، فيحدثنى بحماسته المعهودة عن النجاح الذى تحققه زراعته، وكيف يصدر حاصلاته إلى أوربا، ويطلعنى على خطابات المديح التى يتلقاها من المستوردين الأوربيين.

ولا يكاد فوزى وزوجته وأولادهما يغادرون المزرعة، فهم يرون أن هواءها النقى خير ألف مرة من هواء القاهرة الملوث. والحق أن المنزل الذى بناه فوزى هناك يعد من أجمل المساكن التى رأيتها، لا من حيث فخامته، ولكن لحسن تنسيقه وذوق أثاثه البسيط والعملى.

وقد قابلت فوزى مصادفة فى الشارع منذ أيام، فوجدته ساخطا على حوادث الإرهاب التى تشهدها البلاد، وترحم على أيام عبد الناصر. لكنه أبدا لم يفقد حماسته وتفاؤله، وقال إن مصر عاشت أزمات أكبر من ذلك كثيرا، لكن شعبها استطاع بحكمته التى رسبتها فى أعماقه حضارة آلاف السنين، أن يخرج من المحن مرفوع الرأس. وعندما افترقنا، رأيته يدب الأرض بخطواته العسكرية، بعد أن دعانى لقضاء يوم مع أسرتى فى مزرعته.

لوحة الغلاف/ مهداة من الفنان جورج البهجورى

خطوط الغلاف مهداة من الفنان حامد العويص

إنها معرض هائل للمصائد الإنسانية التي تشكل الحياة في مساراتها، وتحولاتها، إنها الرواية الأولي لعلي الشوباشي التي تصل إلي القراء، رغم أنها ليست الرواية الأولي التي يكتبها. اذ حالت ظروف حياته ما بين اسفار واعتقال في الخمسينات والستينات دون ظهور أعماله العديدة، ولد علي الشوباشي في الاسكندرية عام ١٩٣٣. في اسرة ذات صلة عريقة بالثقافة. والده الاديب المعروف محمد مفيد الشوباشي، تخرج من كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عمل بالمحاماة وبالصحافة في قسم الترجمة بوكالة انباء الشرق الاوسط، ثم سافر إلي فرنسا عام ١٩٧٢ حيث عمل بوكالة الانباء الفرنسية لمدة ربع قرن، وقام بتغطية احداث عالمية عديدة. وكان مديرا لمكتب الوكالة في تركيا لمدة عامين (١٩٨٧ - ١٩٨٩) ورغم وصوله إلي قمة السلم الوظيفي في الوكالة إلا أنه آثر العودة إلي مصر فور تقاعده، ترجم العديد من الروايات والمسرحيات من الفرنسية إلي العربية كما كان خلال اقامته في فرنسا مدافعا عن الثقافة العربية ومعرفا بها وبقيمها للجمهور الفرنسي.

في رابعة / ثالث. سوف يتعرف القارئ علي كاتب كبير تأخر ظهوره كثيراً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

قرش ، قرش جنيه